المسخ يعشق مريم

المسخ يعشق مريم

رواية

معتز هاني

الطبعة الأولى



دار الحلم للنشر والتوزيع

٤ شارع الاشراف - مؤسسة الزكاة - المرج - القاهرة

المدير العام : د.اسلام فتحي

موبايل : ٠١١٤١٨٢٤٥٦٢

dar_el7elm@hotmail.com

تصميم الغلاف : محمد عبد السلام

اخراج داخلي : الحلم للدعاية والاعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٤/٢٦٣٨٤

ISBN : ٩٧٨-٩٧٧-٦٤١٢-٩٤-١

معتز هاني



رواية

إهداء

إلى كلِّ من جرَّبوا الخوف وعاشوا الوحدة
وقهرهم العشق..
أناديكم حيثما كنتم..
أنا معكم..
أنا معكم.

«لقد قتلتهم.. لقد قتلتهم جميعا.. إنهم يستحقون القتل..

«مريم».. «مريم».. «مريم».. إنسية وجنية.. أرضية وكونية.. نارية وفردوسية..

لم تستيقظ بعدُ من غفوتها الصباحية، هكذا قال السكين.. امممم..

لا يُسِئ أحدكم الظن بي فأنا لست بقاتل.. ولكن هكذا قال السكين.

أنا لست بعاشق يا «مريم».. ولكن هكذا قال القلب..

لماذا لا تتحركين يا «مريم»؟

من قتلك يا «مريم» غير جنونك وجمالك؟ ربما تسألين: لماذا شددت وثاقك بكل هذه الحبال؟

قُل ذوقي العذاب يا «مريم».. ذوقيه إنك أنتِ العزيزة الجميلة الكريمة.

هذا شيطان فاوست يا «مريم» يحدثني أن أبيع روحي مقابل عينيك..

فكرتُ كثيرًا يا حبيبتي في عرضه ولكني اخترت طريق الدماء..

لن أخسر روحي لأن عينيك مخادعتان وكما قُلتِ يومًا إنك لستِ من طينتي الرومانسية.. إنك واقعية.

هل سمعتم عن الواقعية السحرية؟ إنه تعبير أدبي لم أفهمه إلا في عينَي «مريم».. عرفت كيف تكون الواقعية سحرية على الرغم من إحساسي بتناقض الكلمتين.

سأصرخ بعدك يا «مريم» وأشق الكون، وحتى إن متِّ يا جميلتي

ستبقين للأبد خط العمر في كف المستحيل.. وسيبقى وجهك إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس ولا القمر.. وستبقى عيناك اقتباسا أبديًّا من قصة خلود».

«سالم توفيق»

لم أكن مجرما ولا قاتلا أبدا، لكن الفقر والعوز أصبحا لغة القهر في حياتي.. فأنا خريج كلية العلوم، عمري الآن ٢٦ عاما، ولم أجد فرصة عمل كحالة آلاف غيري من الشباب ولكني لم أستسلم.. حاولت عشرات المرات ولم أيأس.. كنت دائمًا أقول: إن الفرصة ستأتي بالمحاولة، لكني عرفت الحقيقة وعرفت أن اليأس أيضًا يأتي بعد محاولات!

أصبحَت حالتي أسوأ بعد وفاة والدي وزاد الفقر، وحاجة أمي إلى العلاج في المستشفى جعلتني أسلِّم أختي لقمةً سائغة لفكِّ زمان لا يرحم.. نعم، فالسقطة الأولى تفتح الباب لسقطة أخيرة.. حينما عادت أول مرة متأخرة سألتها: أين كنتِ؟

قالت «سارة» وهي ترتعش من الخوف: كنت.. كنت عند صديقتي.

- ألم أنبهكِ ألف مرة ألا تتأخري؟ هل مات أبي فلم يعد في البيت رجل؟

- لن تتحكم في قراراتي.. هل تفهم؟

حينما صفعتُها بحسرة وألم أخرجتُ في صفعتي كل معاني اليأس التي أحاطت بي كأسنان وحش في حلم طفل صغير حتى سقطت حقيبتها.. وكانت سقطة الحقيبة هي بداية أول سقوط في حياتنا.

قلت في غضب: ما كل هذا المال؟ من أين لكِ به؟ انطقي أيتها

القذرة.

قالت وهي ترتعش وتبكي بدمع همجي: قلت لن تتحكم في قراراتي وحياتي.. اتركني.. اتركني وشأني.

عرفت في النهاية أنها استسلمت.. لم تستسلم للفقر ولكنها استسلمت للذل نفسه، وهو أبو الفقر.. لقد باعت نفسها من أجل المال.. رجل تلو رجل تلو آخر.. أصبحتُ شريكها فيما تفعل.. أصبحت أتقاسم معها المال.. آكل من عرق أخت باعت شرفها وباعتني وباعت أبي معه ولكن أحيانًا يكون الاستسلام هو الحل..

ربما يصدِّق البعض كلام الكتب عن الأمل والألم وأن اليأس خيانة، ولكن من واقع حياتي أصدق أن اليأس شرف.. بل إنه حقيقة في عالم غابت عنه الحقائق.

في البداية، كنت أبكي في غرفتي.. لم أصدق يومًا أن «سارة» (دلوعة البيت) ستصبح عاهرة.

لقد قصمتني الحياة.. لقد خدعتني كما خدع «ست» أخاه «أوزوريس».. عندما صنع له صندوقًا من الذهب وقال إن طابق جسمه فهو هديته.. ولكن حينما دخل «أوزوريس» إلى داخل الصندوق أغلقه عليه أخوه «ست» وألقاه في النيل. فأين إيزيس لتعيدني إلى الحياة؟ لا للأسف لن تعيدني.

في أول يومٍ بكيتُ كطفل فقد والده في حشد ضخم وتذكرت والدي وهو يوصيني بـ«سارة» ويقول:

- «سارة» هي نوارة البيت.. حافظ على نورها يا «سالم».

ولكن ما جعلني أصرخ فجأة بحسرة هو تذكُّري جملته الأخيرة:

- حافظ على نورها يا «سالم».. وحياة أبوك يا «سالم» لتحافظ عليها.

ذهبت إلى أقاربي فأداروا لي ظهورهم وتحججوا بغلاء المعيشة وكثرة المصروفات.. بعد وفاة الأب لن يساعدك أحد.. لا تصدق كلمة «أقارب»؛ فهم «أبعد» ما يكون.

لا يوجد عمل ولا يوجد مال.. والمطالبة بالإيجار والديون تزداد يومًا بعد يوم، فماذا نحن فاعلون يا «سارة»؟ ماذا نحن فاعلون يا نوَّارة البيت؟

ولكن كل شيء تغيَّر على يديه فجأة.. كل شيء في حياتنا قد شكَّله ونحته من جديد.. هو «رائد» باشا. إنه منقذنا ومخلِّصنا.

«سارة»

«في داخل كل منا قصيدة.. لن تضع لها الوزن إلا امرأة».. كانت هذه من بدايات تعارفي بـ«رائد الألفي» حينما قابلني أمام نفس «البار» في الزمالك.. كنت في بدايتي أذهب إلى أرخص البارات المبتذلة كفتاة ليل حتى التقطني أحد الأغنياء وأوصلني إلى الكبار، وبالنسبة لي فالزمالك كانت حلمًا كبيرًا، بل كانت رسم القدر لي، خصوصًا حينما قابلت «رائد»، الذي أصبح «زبوني» الوحيد.

مع مرور الوقت، تمتهن العاهرة وتحتقر نفسها لدرجة أن يصبح حلمها أن تكون لرجل واحد فقط على الرغم من أنها ستكون عاهرته أيضًا!

قابلتُه بالصدفة أمام البار، وكان ينظر للأرض بشكل لافت، لم يكن تقريبًا ينظر أمامه.. وجهه غريب جدًّا، ملامحه تشعر فيها بعدم الارتياح أبدًا، كأن وجهه قد تم تركيبه في معمل بطريقة خاطئة كأنه.. كأنه...

قاطعني قائلًا بصوت واثق:

- مسخ.. لا تفكري كثيرًا.

تعجبت من رده وكأنه يقرأ أفكاري وقلت:

- ألن تعرِّفني بنفسك في البداية؟

- «رائد».. «رائد الألفي».

لا أعرف هل عطفت عليه وكانت الشفقة هي مدخلي لعالمه، أم أنه فعلًا شخصية ساحرة ومختلفة!

فزعت في البداية حينما رأيت وجهه المعوج وحركة ذراعه المريبة.. تشعر أن أفضل وصف له هو ما قاله على نفسه أنه فعلًا «مسخ»، ولكن ربما يكون «مسخًا طيبًا»، وهل قابلت أنا في حياتي غير المسوخ؟

- تشرفت بمعرفتك.. لكن لماذا؟ لماذا تقول على نفسك «مسخ»؟

- ولماذا أنت كما أنت؟ هناك حقائق لا يمكن تجاهلها في هذه الحياة.. الدنيا ديكتاتور ما علينا سوى أن نخضع لكل أوامرها.

- وكيف أنا؟ ثم إن القصة ليست في المظهر؟ ألم تسمع بمقولة: «تكلم حتى أراك»؟

- امممممم.. في مهنتك هذه ومثقفة؟ شيء غريب.. أليس كذلك؟

قلت «دامعة»:

- سامحك الله.. لولا الظروف لكنت أفضل مما أنا فيه بكثير.. سامحك الله.

قال في شفقة:

- لا تخافي مني.. أرجوكِ لا تخافي مني.. لقد مللت من عدد الخائفين وكرهت الخوف ذاته.

- لماذا تصر على أنِّي خائفة منك؟ قد يكون بداخلك شيء أفضل مما رأيت في كل قلوب الآخرين.

ثم استطردتُ مداعبة: على عكس ما يظهر منك وأنت تهاجمني

كل لحظة.

ضحك ضحكةً صاخبةً وحرّك جزءًا من معطفه الأسود فكشف عن جرح غائر في وجهه شهقت من رؤيته.. فكأنما هو حقًّا «مسخ آدمي» إذا كان من الجائز أن أقرن الكلمتين في حالته.

لاحظ خوفي فقال:

- من المؤكد أنك شاهدتِ الجرح.. ستعتادين مع الأيام.

- أعتاد على ماذا؟ لا أفهم.

- أريدك لي فقط.. ودائمًا.

- بهذه السرعة؟ لقد أخذت قرارك بشكل سريع.

- أنا أعرف من أحدثه من كلمتين فقط.. هل وافقتِ؟

قلتُ في سعادة مشوبة بقلق عارم مما أنا مقبلة عليه:

- نعم.. أوافق.

«حسام الراوي»

اسمي حسام إبراهيم الراوي، ٢٤ عامًا، خريج كلية التجارة قسم اللغة الإنجليزية.. كانت هذه الليلة هي أغرب ليلة في حياتي.. بعد كل هذه السنوات أقابله مرة أخرى! إنه المسخ.. أقصد «رائد».. لقد تعوَّدنا جميعًا في أيام الجامعة أن نلقبه بالمسخ.. كنت أرفض من دون كل أصدقائي هذا الاسم لأنه بالتأكيد سيجرح مشاعره.. لقد كنا في السنة الأولى في كلية التجارة أكثر من أصدقاء.. كان «رائد» هو مفتاح البهجة والسعادة بالنسبة لنا، إلى أن جاء اليوم الذي شعر فيه «رائد» بأن هناك شيئًا ليس كما يجب، وحينما رآه البعض في الجامعة سأله ساخرًا: ما الذي حدث لوجهك؟ لماذا يبدو بهذا الشكل؟

هذه الجملة تكررت يومًا بعد يوم حتى أصبح لا يعرف بماذا يجيب.. لقد تغيَّرت ملامح وجهه وكانت عضلات الوجه مشدودة بشكل مبالَغ فيه، ما جعل التناسق و«السيمترية» يتلاشيان في وجهه تدريجيًّا بشكل لافت وكريه.

ذهب إلى الكثير من الأطباء - كما حكى لي - ولم يفلح علاجه؛ فكل ما أخذه من حقن وأدوية كانت له آثار جانبية مذهلة ومؤلمة فاضطر للاستسلام والتواري في بيته خجلًا من الناس حتى نصحه

أحد أصدقائه بزيارة أحد أطباء التجميل الذي ذهب إليه وعرف أن الحل في عملية صغيرة.

كانت آثار حقن التجميل الجانبية قد زاد تأثيرها على وجهه، ما جعل أمر العملية إجباريًّا بالنسبة له، ولكن لأن الطب في بلدنا الحبيب أصبح كلعبة الموت؛ فكل عملية تقوم بها قد لا تقوم فيها من تخديرك على الإطلاق، فقد فشلت العملية وازداد النفور من وجه «رائد».. لقد أصبح مسخًا حقيقيًّا واستسلم للأمر.

وعلى الرغم من أنه استسلم للحياة فإن قلبه لم يستسلم بعدُ. لقد عشق «مريم».. نعم أحبها بجنون وهام بها من أول يوم رآها فيه في الجامعة.. كانت في السنة الثانية تعيدها حينما انتقلت دفعتنا إلى السنة الثانية.. لقد شاء الحب أن يلتقي معها ويعشقها «رائد» الجديد وليس «رائد» القديم.. لقد شاء لها القدر أن يكون لها عاشق سري هو «المسخ»!!

كتب ذات يوم في الدفتر الخاص به وعيناه لا تفارقان «مريم»: «سيرانو دي برجراك».

قلت له: ما معنى هذه الكلمة يا «رائد»؟

قال في غصة طائر فقد عشه: معناها: الألم.. الألم الرهيب.

عرفت بعدها عن «سيرانو دي برجراك» وقصته وأنه كان قبيح الوجه ويعشق امرأة جميلة وكانت مسرحية من أقوى قصص الحب لإدموند روستان وترجمها إلى العربية المنفلوطي، الذي ترجم الكثير

من الأعمال.
كنت أفهم ما يقصده.. كنت أشعر به وبألمه.. لا يستطيع حتى أن يصارحها بحبه، وقد قال لي في يوم من الأيام: كيف أهبط بها للوحل وهي طير جميل لا يستطيع أن يحيا إلا في السماء؟ هي النور.. وأنا ظلام الكون كله.
قابلت «رائد» اليوم أمام باب منزلي.. كأن صاعقة قد ضربت قلبي بقوة من هول المفاجأة.. كيف عرف مكاني بعد كل هذه السنوات؟ ولماذا يبدو منهكًا إلى هذا الحد؟ ماذا فعلت يا «رائد»؟ وماذا فعل بك الزمن يا صديقي؟
بعد أن دق جرس الشقة ورأيت «رائد» مهمومًا مكسورًا كموَّال شعبي حزين هرعت إليه وصحت: «رائد»؟ ما بك يا «رائد»؟ ما الذي حدث؟
قال في ضعف: قتلت.. قتلته.. لا أحد يستحق الحياة.
تملكني الفزع كأني رأيت أمامي ألف شبح فجأة وقلت بخوف: من يا «رائد»؟ قتلت؟ أنت تقتل؟
قال في ضعف: أرجوك.. قليلًا من الماء.. قليلًا من الماء.
هرعت إلى غرفتي وقلت لصديقتي التي كانت تلبس لي الطاقم الداخلي المفضل بلونه الروز من ماركة «فيكتوريا سيكريت» أن تخرج فورًا والآن، وصحت بها: هيا بسرعة، لا يوجد وقت.. إنه صديقي في الخارج.. آسف جدًّا، سأراكِ في يوم آخر.

قالت في تأفف وضجر: يييه.. مرة أخرى؟ ألن تكف عن هذه الحماقات؟ كل يوم في حال؟

- آسف جدًّا، ولكن الأيام المقبلة كثيرة بيننا.. صدقيني.

خرجتْ بعد أن ارتدت البنطلون الجينز والبادي الكحلي و«سكارف» خفيفًا على رقبتها وقالت: إلى اللقاء.. سنلتقي عندما تحدثني في الهاتف.

أحضرت الماء سريعًا لـ«رائد» وشرب بسرعة جنونية كأنه في صحراء ويداه ترتعشان بشكل تلقائي وقال: أغلق الباب واترك هذا الصندوق عندك.. أرجوك.

قلت له مستفهمًا: أي صندوق؟

- لا يهم الآن.. إنها أمانة يا «حسام».. لن أثق في أحد غيرك.. لا تجعل أي أحد يلمسه.

- لا تقلق يا «رائد».. ولكن ما الذي حدث؟ لقد ازداد قلقي.. ما الذي حدث لك؟ وكيف عرفت مكاني؟

- قصة كبيرة.. سأستريح وأحكيها لك.. المهم أنني قتلت.. لقد تحررت.

حينما نطق مرة أخرى جملته الأخيرة ازددت رعبًا وازداد خوفي من «رائد» الذي لم أعهده قاتلًا.. «رائد» يقتل؟ قوتك يا «رائد» ستكسر ما لا أحب أن يُكسر أبدًا!!

«رائد الألفي»

أشعر.. هل أشعر؟ حينما كان أبي يسألني أحيانًا: «بماذا تشعر»؟ كنت أقول لنفسي في ثقة:

- أشعر بأنني لوحة فنية مرسومة بزيت مضيء في معرض فني لم يلقَ حظه من النجاح.. لكن لوحات المعرض كلها بيعت فجأة إلا أنا.. مع أني أفضل لوحات هذا الفنان في عُرف ريشته الصادقة!

أشعر بأنني صهيل حصان أخرس في معركة فرسان.. ولكن تعوُّد الحصان على المعارك قد أفقده حماسه لها.. وسقط صوته من حلبة المعركة.. وتأتي المعارك ولا يأتي الصهيل.

أشعر أني «ما بعد أنا»..

أعيش في حاضري برؤية المستقبل؛ فالحب صار ماضيًا بعيدًا على الرغم من احتضاره منذ أيام قليلة.. أعيش في نفس الأيام ولكن بغير نفسي التي انصهرت معها الأعوام.. فالماضي والحاضر في صيغة الماضي، أما المستقبل فقد كتبته بصيغة حاضري.. إني حقًّا «ما بعد أنا»!

بعد فشل العملية، أصبحت حياتي كالجحيم.. يعتصرني الألم كوحش خرافي.. لا أستطيع أن أرفع عيني في وجوه الناس.. أنا المكسور والمقهور.. أنا الرجل الذي فقد كل شيء.

أرى التعجب والدهشة مرسومين كزخرفة كوفية في وجه «حسام» صديقي.. الناس بالنسبة لي أرواح جائعة للشماتة في ما حدث لي وهو ما ليس لي يدٌ به.. إنه القدر أيها الخونة.. إنه القدر يا نخاسي الأرواح.. لماذا تنظرون إليَّ بفزع دائم وكأنكم تشاهدون فيلم رعب؟ أنا أفزع من نظراتكم أكثر مما تفزعون من وجهي السقيم. أعرف أني مسخ ولكني أيقنت أنكم مسوخ من داخلكم مغلفة بوجوه رقيقة ناعمة أحسدكم عليها.

لقد فقدت كل شيء بسبب وجهي.. فقدت الحب وفقدت الثقة وفقدت الأمان.. وفكرت ألف مرة في الانتحار أيها الدجالون.. لكنكم لا تعرفون كل هذا.. لا تعرفون مُعاناتي.. لقد كنت مثل بيت الشعر الذي يقول: «إني كمصباح الطريق صديقتي.. أبكي ولا أحد يرى دمعاتي».

لا توجد أغنية واحدة في كل أغاني الكون تعبر عني أكثر من أغنية creep – radiohead.

عمليات تجميل خسرت بها كل شيء وأصبح الوضع معقدًا أكثر، حتى إن عملية في الخارج بتكلفة رهيبة لا أتحملها غير مضمونة، ثم إن وضعنا المادي ليس بالقوة الكافية لهذه الأسعار الفلكية على الرغم من أننا ميسورو الحال.

أنا المسخ أيها البشر.. ولكنكم لستم أفضل حالًا.. لستم أفضل مني في شيء.. هكذا كنت دائمًا أقف أمام المرآة وأردد لنفسي وأنا أرتعش

من الألم.
أصعب شيء قد تواجهه أن تفرَّ من نفسك.. أن تنكر حقيقتك كلما نظرت لزجاج السيارات في الشارع أو واجهات المحلات.. أن تفر من كل ما يعكس صورتك.. حتى النهر تفر منه.. أنا عكس «نرسيس».. كانت الأسطورة تحكي عن «نرسيس» الذي كان يتأمل في جماله في ماء البحيرة إلى أن سقط ومات فيها وتحوَّل جسمه إلى زهرة نرجس! أما أنا فأفر من كل شيء.. أفر من كل ما يعكس صورتي، حتى الشمس أكرهها لأنها تُظهر للناس صورتي بوضوح.. حينما قال الشاعر: «كن جميلًا ترَ الوجود جميلًا» لم يكن يعرف أنه يؤلمني بجملته!!
أذكر في السنة الثانية في الجامعة أني ذهبت إلى شئون الطلبة لأدفع بعض المصاريف وقال أحدهم بعد انصرافي بصوت خافت ولكني سمعته: يا الله!! ما هذا؟ هل هو معنا؟ كيف سيكمل في الجامعة بهذا الشكل؟
وحين ركبت سيارة الأجرة قال لي السائق بمنتهى الهمجية: لماذا تنظر إليَّ هكذا؟ ألا أعجبك؟
كدت أفتك به وأقتلع عينيه حتى جاء الصوت من خلفي ناعمًا راقصًا يقول: إنه لم ينظر إليك حتى.. لقد توهمت هذا..
ما زلت أذكر هذه الجملة.. إنها «مريم».. «مريم» تدافع عني أمام الهمجي الذي هاجمني.. أعرف أنها مجرد شفقة.. آه يا «مريم»،

فإن جمالك يُطيل العمر.. إني رأيت في عينيك أحد عشر عاشقًا والشمس والقمر.. ملامحك يا «مريم» تتكرر تكرارًا أبديًّا جميلًا.. تكرري كالأيام، ويا ليت اليوم كعام يا صديقتي.

لا أعرف، يا أيتها الجميلة النائمة، هل إن قبَّلتك أحييك كما القصة أم أموت مثلك في نوم عميق؟

حين سمعت صوتك يا «مريم» تدافعين عني لأول مرة أحسست بوريدي كأنه محمَّل بسفن من الياسمين.. أصبح وريدي ميناء حبك وغرامك.

لو كانت عيناك حبسي الانفرادي لاخترت السجن الأبدي.

لو سألتِ نبضي وقلبي يا حبيبتي: «هل أتيتما طوعًا»؟ سيقولان: «أتينا طائعين».

المسخ يعشقك يا «مريم».. وآه لو تعرفين ما يعانيه مسخك الذليل!

قالت وهي تنظر إليَّ بصوت خافت: دعك منه واقترب بجواري.

صوتها يقطر شفقة.. دمعت عيناي من الألم.. إنها تشفق عليَّ، فكيف ستتحول الشفقة في يوم إلى حب؟! مستحيل.. لن أستطيع أن أصارحها بشعوري في يوم ما.. لا يمكن أن يكون عنوان قصتنا «المسخ يعشق مريم»، بل من الممكن فقط أن يكون «ملاك يعشق مريم».

كانت عيناها تجولان وتصولان في وجهي بتعجُّب بالغ وكأنها تقول لنفسها: «ترى ما الذي أوصله لهذه الحالة؟ أي ألم يلم به؟».

قالت لمحاولة تغيير الموضوع: هل تعرف أي محاضرة في الجدول غدًا؟ آسفة لقد فقدت الجدول.

- محاسبة مالية.

- آه شكرًا، لقد تذكرت.. مادة مملة جدًّا.. هههههه. كان الله في عوننا.

ازداد نبض قلبي حينما سمعت ضحكتها الطفولية الرشيقة البريئة العاتية التي مرَّت عليَّ كلحظة انتقلت فيها آنيًّا.. نعم إنه انتقال آني مجنون.. لقد تناثرت أجزائي واجتمعت ولكن في نفس المكان.. لا أشعر بأنني نفسي الذي كنت منذ ثوانٍ معدودة.. ماذا تفعلين بي يا «مريم»؟

من أنتِ يا أسيرة روعتها، يا قيلولة آلامي وحبك هو اليقظة؟!

أعشق حتى غطاء رأسك يا «مريم».. أنا عنكبوت ومشاعري خيوط فاغزلي منها غطاء لرأسك واتركيني بين عينيك ألف شهر.

بعد أن خرجت من دوَّامة الذكريات قال «حسام»: ادخل واسترِح يا «رائد»، تبدو متعبًا جدًّا.. لا يوجد أحد بالداخل، ولكن في الغد ستروي لي ما الذي حدث.. أنت مرهق الآن.

وافقت ودخلت إلى غرفته وقد اتفق معي أنه سينام على «الكنبة» في صالة الشقة الضيقة التي يقطن بها..

غرفة مليئة بالصور الفاضحة العارية.. تعج بزجاجات «البيرة» وقطع ملابس داخلية.. كانت علاقتنا غريبة.. «حسام» كان الخجول الذي يمثل أحيانًا دور القوة وأنا القوي العنيف الذي لا يمثل أي

أدوار..

كان يضحك ويقول لي: «احنا الاتنين دويتو ما حصلش».

ولكني قتلت يا «حسام».. اليوم أصبحت أقوى بلا منازع.. اليوم لا سيطرة لأحد عليَّ.. أنا الأقوى.. أنا القاتل والعاشق والمكسور يا «حسام».. أنا الغربة وأنت السكن.

«حقًّا، ما أسهل سحق الضعفاء في هذا العالم»!

أنطوان تشيخوف

«إن للخير والشر وجهًا واحدًا. كل شيء يتعلق باللحظة التي يلتقيان فيها الكائن البشري».

باولو كويلو

«سالم توفيق»

كان غنيًّا ولكنه غريب الأطوار.. كل من عرف «رائد» قال عنه نفس الكلام.. حركات وجهه مريبة، ترميك بنظرة كراهية لا داعي لها في جلسة ودية، وطريقة حركة كتفه أيضًا لا أفهمها.
كان هو كل شيء في حياة «سارة».. لقد قتلتنا الدنيا لدرجة أني أصبحت أطمئن عليها الآن وهي تعيش في الحرام الفردي بدلًا من الجماعي!!
ومع مرور الأيام ومع مال «رائد» الوفير أصبحنا صديقين، لكن أتى اليوم الذي قال لي فيه بعض الأسرار، وقال لي هامسًا: أريدك في أمر خطير.
- اطلب ما شئت.
- قتل.. جريمة قتل.
- ماذا؟ ما الذي تقول؟ هل تظن أنك ستشتريني بأموالك؟ لا يمكن أن أقتل أبدًا، أنا لست مجرمًا.. لولا الظروف...
قاطعني بحدة: ليس من الضروري أن يكون أنت. ربما توصلني بأحدهم إذًا.. أعرف أن بحكم عملك دخلت البارات، وهذه الأماكن فيها المعدمون والمفلسون الذين يبيعون أنفسهم للشيطان إذا طلب.
- ربما سأحاول إيجاد أحد هؤلاء.. أما أنا فمستحيل طبعًا.

نظر إليَّ بشك وقال وهو ينظر نظرة مرعبة: حتى إذا قلت لك: ٥٠ ألف جنيه.

سال لعابي على المبلغ، لكن إن كانت الحياة حوَّلتني إلى قوَّاد فلن أسمح لها أن تحوِّلني لقاتل أيضا.. فقد يتبقى لي بعض الكرامة أمام نفسي إن قاومت هذا المبلغ.

ومع مرور الوقت والتفكير في العرض، طعنتني الحياة آخر طعناتها ووافقتُ على العرض، فلن أضيع مثل هذا المبلغ.. إن خطيئتك الأولى ستفتح عليك أبوابًا من الخطايا لن تستطيع أن تغلقها أبدًا.

عرفت منه أنه يريد مني قتل أحد من يعرفهم، واسمه «محمد البحيري»، سألته في دهشة: لكن.. لماذا تريد أن تقتله؟

- كان زميلي في الجامعة وعرفت أن فرحه على «مريم» قريبًا.

- ومَن «مريم»؟

- «مريم» هي كل شيء في حياتي.. يريد أن يأخذها من بين ضلوعي بهذه السهولة.. إنه يحلم.. إنه واهم.

- اهدأ.. اهدأ قليلًا.

قال بانفعال: أنا هادئ بالفعل.. المهم، هل وجدت أحدهم؟

- أنا.

قال بسخرية: كما توقعت.

- سامحك الله، لولا الظروف والمال لكنت في أفضل حال.

- يوم الفرح هو الخميس وأنا عرفت كل تحركاته بطريقتي الخاصة.

- وأين ستتم هذه العملية؟
- في منزله قبل الفرح.. لا بد أن تتحسر عليه «مريم» ويندم على ما فعل وهو يموت.
- لأول مرة تحدِّثني عن نفسك.. هل تصدق؟ كم مرة جلست معك ولكنك لم تقصّ عليَّ قصتك أبدًا ولا حتى لـ«سارة» أختي.
- فيما بعدُ.. فيما بعدُ ستعرف كل شيء.
- لم أقتل أبدًا من قبل.. عليك أنت أن ترسم الخطة على الأقل.
- لا تقلق، كل شيء تم تجهيزه والمواعيد بالدقيقة والخطة وضعتها.. ستقوم أنت بالتنفيذ فقط.
- الخوف يقتلني.
خلق «رائد» القاتل فيَّ.. آخر شيء توقعتُه وأنا أجلس وأقبل يد أبي كل صباح أن أصبح قاتلًا.. كان يتوقع لي مستقبلًا مشرقًا، ولكن أين المستقبل المشرق مع الفقر؟ أين الراحة مع الحاجة.. نعم لو كان الفقر رجلًا لمزقته إربا ولن أقتله فقط!
قبل العملية بيومين وأنا أتقيَّأ.. لا أعرف ما أنا مقدم عليه.. سأقتل.. بدأت أحلم بالدماء من الآن.. أنام ساعتين على الأكثر ولا تفارقني الكوابيس، فما بالي بعد عملية القتل ورؤية الجثة؟ هل أتراجع؟ ولكنه مبلغ قد يؤمِّن لي حياة أفضل..
«لا تقترب يا جبان».. يصيح الضحية في الحلم وأنا أُشهر مسدسي بعنفوان وزهو وأجعله يجثو على ركبتيه أمامي.. «قلت لك لا

تقترب».. ثم أجد رصاصة من خلفي لا أعلم مصدرها.. أستيقظ بعدها وسط بحر من العرق ورعشة خوف أزلية.
وجه «رائد» الآن أصبح يذكِّرني بالموت.. إنه شيطان خلف قناع قلب بريء.. مؤكد أن وجهه القبيح هو سبب غيرته من زميله الذي يريد قتله.. لا أظن أنها قصة حب، أظن أن الغيرة تنهش عظامه.
حينما نمتُ نومًا متقطعًا في المرة الثانية حلمت بثعبان كبير يلعب معي على طاولة قمار في أحد الكازينوهات.. لا أعرف من هو الديلر.. بدأ يكشف عن وجهه تدريجيًّا.. لقد رأيت «رائد»!!
بدأت أخاف من هذه العملية.. لا أريد المال.. المال ليس كل شيء، أو هكذا يقول الفقراء، فأنا أعرف جيدًا أن ما لا يأتي بالمال يأتي بالزيادة فيه.. نعم.. أومن تمامًا بهذا.
ذهبت بعد ذلك على الرغم من خوفي إلى المكان المحدد.. دخلت بحذر من البوابة وتأكدت من كلامه من عدم وجود بواب في هذا التوقيت؛ لأنه كما قال يجلس على القهوة المجاورة ويترك المكان لابنه الصغير الذي يقتصر دوره على التنظيف وإحضار الطلبات.. لا كاميرات مراقبة في العمارات القديمة كما أن لا كاميرات تعمل أساسًا في مصر ولا حتى في المرور.
صعدت بسرعة من دون استخدام المصعد إلى الدور الثالث.. ممسكًا «باقة ورد» من نوع التيوليب.. فتح «الضحية» الباب وقال: نعم؟
قلت محاولًا التماسك بصعوبة: الأستاذة «مريم» أرسلت لك هذه

الأزهار وأوصتني أن أضعها لك في «الفازة» بنفسي.
أخرجت الفازة وسط ذهول «محمد البحيري» وقال: شيء غريب.. كانت تكلمني منذ قليل ولم تذكر شيئًا عن هذا.. على العموم تفضل.
دخلت إلى داخل الشقة وأنا أرتجف؛ فهذه أول عملية وأظنها الأخيرة، وأخاف أن أفشل فلا أخسر المال فقط، بل ربما قد يكون مصيري المؤبد أو الإعدام.
بدأت أرتِّب الزهور في الفازة وهو يكمل ارتداء ملابسه استعدادًا ليوم حافل قبل ميعاد الفرح ليلًا.. فقد اختار «رائد» الموعد في نفس يوم الفرح.
لم أستعمل المسدس الكاتم للصوت الذي جهزه لي «رائد» من أحد تجار الأسلحة المهربة الذين حاول الاتفاق مع أحدهم على تجهيز قاتل له ولكن بلا جدوى حتى ممن وثق بهم ووثقوا به فاختارني في النهاية ولكن اشترى هو السلاح بالطبع.
تذكرت فيلمًا قديمًا كان القاتل فيه يستخدم «رابطة العنق» في قتل الضحية.. شاهدته مرة مع صديق لي.. استخدمت نفس الطريقة وهجمت عليه فجأة خانقًا له بقوة ألف حصان وعزيمة وجنون ألف يائس.. جحظت عيناه وهو يحاول الصراخ بلا جدوى.. قال لي وهو يودِّع الحياة: لماذا؟ ما الذي فعلت؟
كان يريد أن يعرف، وكان «رائد» يعلم هذا أثناء تجهيز خطته فأعطاني صورة له لأريها له أثناء قتله كنوع من الفرحة في موته

ولتكون صورة «رائد» آخر شيء يراه وهو يموت ويتوارى عن الحياة تدريجيًّا.

أخرجت الصورة ووضعتها نصب عينيه فقال في صوت ذاهل وذابل وهو يموت، وكانت آخر كلماته التي صرخ بها: «ح... س...»!!

كان يعرفه جيدًا.. سقط صريعًا، وما عليَّ الآن سوى خطة الهروب وهي الأصعب في أي جريمة قتل، ألَّا تترك أي دليل وأن تحاول أن تجعلها جريمة كاملة إذا كانت هناك جريمة كاملة في الأساس.

خرجت بعد ترتيب كل شيء وتأكدي أني لم أترك أثرًا، ونزلت على السلم بشكل هادئ تمامًا كي لا أثير ريبة أي من سكان العمارة.

لم أجده في المكان المتفق عليه.. أين أنت يا «رائد»؟ اضطررت للهروب السريع وحدي وسمعت نغمة هاتفي فارتعشت يدي خوفًا وقلقًا؛ فأنا الآن قاتل وسيظل الخوف صديقي الوفي.. لا أعلم هل سيطاردني وجه المقتول في كل مكان كما الروايات أم سأكتفي بالكوابيس!

رددت على الهاتف وقلت: «رائد».. أين أنت؟

قال متلعثمًا: آسف، أنا في مشوار عاجل.. أنا في مكان ليس من المهم أن تعرفه. المهم، كل شيء قد تم؟

- نعم الحمد لله.. تخيل قاتلًا يقول الحمد لله.

- لا تقُل قاتل.. لقد أخذت بثأري فقط ولم تجرم.. قتل بعض الناس رحمة بهم.

- ما الذي تهذي به؟ أهذه نظرية شيطان؟ أليس كذلك؟

- كما يقولون «لا شيطان إلا بني آدم يا صديقي».

- إذًا سأغلق الخط الآن ونلتقي في الغد لأحصل على بقية المبلغ.

- حسنًا.. إلى اللقاء.

«رائد الألفي»

من بعيدٍ أراقب كل شيء.. لا أستطيع أن أقتل ذبابة بيدي، ولكني أستطيع أن أكون شيطانًا أحيانًا، أو هذا ما اكتشفته في نفسي.

آه أيها البشر.. لو تنادي الناس بصفاتهم لا بأسمائهم لصُمَّت أذناك من كثرة الألفاظ النابية.. أقف هنا منذ ساعات.. أرى القلق على الوجوه.. لم يحضر العريس.. نعم، لقد مات العريس وهذا ما ستعرفونه بعد وقت وإن طال.

كان والداه قادمين من «المحلة»، مدينته الأصلية، ليذهبا معه في الزفة، وكان وحده في المنزل وقت أن قُتل.. كان يعيش في القاهرة لظروف العمل في شقة منفردًا في أحد الأحياء الراقية ولكنها عمارة قديمة نسبيًا.

وقفت أمام قاعة الفرح أنظر من بعيد.. كانت نشواي في تلك اللحظة أن أراهم يبكون ويتمزقون مثلما تمزقت لسنوات.

جئت لأرى بنفسي فستان الفرح يا «مريم».. لقد بدأت في عينيك أرتجل الجنون.. أنا المطرود من رحمة حسنك يا «مريم»..

أنتِ اليوم بفستانك الأبيض بريد الله مغلف بملاك أبيض..

أنا وحبك توأم ملتصق يا «مريم».. فمن يحاول فك ارتباطنا؟ الزمان؟ إنه طبيب فاشل.

وجهك يا «مريم» سر طليق.. قصة خلود.. حيلة سحرية.. مسك

كوني.. غابات مسك وعنبر.. آخر حكمة لجبران.. لوحة لدافنشي.. وجهك جنوني الخالص الأبدي.

كالعود أنا يا «مريم».. إذا ضرب الزمان على وتري أشجاني واللحن حزين.

كنت أظن أننا سنتقابل في الجنة! ولكن كيف يكون ذلك إذا كنتِ أنتِ الجنة!!

من كثرة ما تعوَّدت على شعوري بالفقد والفراق، أدمنته.. بدأت أخرج طيوري التي أعشقها من الأقفاص وأتركها حرة طليقة وأبكي عليها!

أراكِ اليوم يا «مريم» بفستانك الأبيض.. وقد كساني الله كلمات ولحمًا وعظمًا..

لو كان لي في الأمر اختيار لفضَّلت أن أقبع بداخل زجاجة عطر ربما تتعطرين بها فأطاردك كشبح مجنون وأحتل مدائن عينيك.

أنا الخيميائي الذي بحث فيك يا «مريم» عن حجر الفلاسفة..

أنا حبيبك وسأظل إلى الأبد.. أنا الحب المطلق المجرد وهم زائلون.

عرفوا الخبر.. أسمع صوت صراخ محبب من بعيد.. الآن أتى الحزن الجميل.. فستانك الأبيض سيصبح ملابس سوداء.. حدادًا عليه؟ لا لا، بل قولي حدادًا على حبنا يا «مريم» الجميلة.

أنتِ قصيدتي يا «مريم».. والمرأة مثل قصيدة الشِّعر تختلف حسب طريقة قراءتك لها.

نار أحزانكم تدفئني الآن ولا تحرقني.. إنها نار برد وسلام عليَّ.
لو كان فرحي يا «مريم» لصنعت جداول الماء ووضعت الأزهار على الطريقة الهندية.. غفرانكِ سيدتي؛ فالحب أصيل والحزن قاتل.
تتساقط دمعاتكم؟
هل تبكون؟
فلتبكوا ولتتساقط دمعاتكم بنفس سرعة ضياع أحلامي.
أتبكين عليه يا «مريم»؟ لا تجرحي عينيك بذكراه، إنه سارق الحب..
حذارِ يا «مريم»؛ فعيناك أغلى عندي من نفسي..
عيناك أمنيتان.. دوامتان.. نهرا فرحة.. فرَمانان بالعشق.. نظريتان في فرضية الجمال.. أجراس كنيسة وحائط مبكاي ودموعي.. هدية فينوس للأرض.. بوابتان للجنة.
أعيش في عينيك كـ«يونس» في بطن الحوت.. أنقذني أيها الحب المقدس.
أنت.. نعم أنت سبب دوران الأرض في حيرة وجنون حول الشمس.
أنظر إليكم من بعيد في فرحة وأنتم تبكون.. أرى أنكم تتطهرون بدموعكم من هذا الكاذب سارق «مريم».
لو كان الجمال صفحتين لكانت لكِ واحدة منهما يا حبيبتي.
لا اجتهاد مع نص.. ولا اجتهاد مع جمالك.. فأنتِ نَصُّ الجمال والحسن.
أذكر الآن اليوم الذي أخذت منك فيه قطعة الشوكولاتة.. لقد

كانت ملكًا له.. لقد عرفت أنه أعطاك إياها وأنتِ أعطيتِني نفس القطعة.. أنا لست بديلًا يا «مريم»، أنا حبك المطلق والأزلي.. وهم الحب المسبب.. الحب هو ليس أن تدمع أمام الله بل أن ترى الله في دموعك..

الحب إخلاص وترنيمة خلود.. الحب أن تفقد حروف العلة علتها وظروف الزمان زمانها وظروف المكان مكانها ليبقى فقط أنت ومن تحب.

يومها رأيته وهو يتحدث مع صديقه ويقول: هل تراهن أني أستطيع أن أجعلها تقع في حبي في شهر واحد؟

قال له صديقه: كيف هذا؟ ولكن إذا حالفك الحظ في جعلها تحبك فقد فُتحت لك أبواب السماء.. إنها أجمل مَن في الدفعة بكل تأكيد.

لم يشترِ قطعة الشوكولاتة إلا من أجل أغراضه الخسيسة، إنه لا يحبك.. كنت أنا أقف بعيدًا وأسمعهما وأفور من الغضب.. أردتُ أن أقتله بيدي.. وبعد أن غادر أتيتِ إليَّ وقلتِ في حزن: ما بك؟ هل حدث شيء؟

قلت في صوت متهالك وعاشق: لا شيء.. خبر سيئ سمعته.. لا تشغلي بالك.

- أعرف أنك تعشق جبران حتى النخاع.. لماذا لا تعمل بنصيحته التي تقول: «في قلب كل شتاء ربيع نابض، ووراء كل ليل فجر باسم»؟

قلت بشكل لا إرادي: وأيضًا قال جبران: «الجمال العظيم يأسرني، ولكن الجمال الأعظم يحررني من أسر ذاته».

والمحبة التي لا تنبع في كل يوم تموت في كل يوم.

لا أعرف ماذا فعلت، لكننا وقفنا، وكأن الزمن سراج حولنا قد انطفأ وبقينا في ظلامنا وقتًا قصيرًا ننظر فقط إلى نور أعيننا.. لقد شعرت بشيء داخلي.. شيء نادر.. شيء حقيقي.. جوهرة مدفونة هي الحب.

قالت فجأة في خجل أنثوي رقيق: حسنًا.. كي لا يأخذنا الحديث وأضيِّع المحاضرة تفضَّل هذه القطعة من الشوكولاتة ولا تيأس أبدًا، صدقني.. الدنيا لا تستحق.

«جبران» و«مريم» معًا.. يا له من مشهد مجنون في حياتي.. إنه اليوم الذي سأظل أتذكره طوال حياتي، إنه الجمال يتحدث عن نفسه أمامي.. فجأة قلت لنفسي كلمات جبران من «أرباب الأرض»:

يا نفسي يا نفسي..

أيتها الدائرة المحترقة التي تمنطقني بلهيبها..

كيف أستطيع أن أقود سيرك؟

وإلى أي فضاء أدير شوقك؟

يا نفسي التي لا رفيق لها..

إنك في مجاعتك تصطادين ذاتك.

شعرت فجأة بغيرة شديدة من جميع الأنبياء.. فقد جاؤوا برسالة بينما خَلقتُ أنا رسالتي وقلت لنفسي: رسالتي «الحب».. وهم

نجحوا في رسالتهم وسقطت أنا في فخ امرأة أقل ما يقال عن عينيها إنها «قاتلة الأنبياء»!

في هذا اليوم، أخذت قطعة الشوكولاتة ووضعتها أمامي في البيت ودمعت عيناي دمعات حب صادقة.. إنه شيء منك يا «مريم».. إنها أول هدية وأول شيء تلمسينه وألمسه.. أشعر أني في ملحمة «جلجامش» وأطلب منك الخلود.. أول ما أطلبه منك هو الخلود.

أنا لا أريدك بعد الآن يا «مريم» ولكن.. فقط.. أريد منك ذاتي.

قابلت «حسام» صديقي بعدها بيومين، حكيت له أني بكيت بشدة أمام قطعة الشوكولاتة.. هل تذكرين يا حبيبتي هذا المشهد في فيلم «chocolat» عندما بكى القس وهو يأكل الشوكولاتة؟ لقد بكيت مثله ولكن لم آكلها.. سأحتفظ بها في قلبي إلى الأبد.

قال لي «حسام»: لا تفعل هذا في نفسك.. هل تريد أن أكلمها لك؟

قلت في حدة: أنت؟ إنك لا تستطيع أن تكلم حتى الآن فتاتك.. على العموم «مريم» لا تستحق أن تعيش مع من هو مثلي.

قال وهو يهزني: لماذا؟ ما الذي تفعله في نفسك؟ لقد استسلمت وأقنعت نفسك أنك مسخ.. هل ستكمل حياتك هكذا؟ حاول أن تقنع الناس بعكس ما يظنونه عنك.. أين ثقتك في نفسك يا «رائد»؟ أين «رائد» القديم؟ أين ذهب؟

صحتُ في حسرة أسير: مات في غرفة العمليات.. وقتل المجتمع ما تبقى منه.

ثم قلت له بشيء من القوة: أنا الحب المطلق الوحيد، وهم كلهم حب مسبب.. كلهم لهم أسبابهم.. أنا الحب دون سبب.. أنا الحب الحقيقي.. أنا قوي.. أنا أقوى من الجميع.. إلا «مريم»!
عانقني «حسام» في هذا اليوم بقوة حتى مر علينا «محمد البحيري» وقال في تهكم أمام الجميع: هل تكلم نفسك مرة أخرى؟ أأعجبتك الشوكولاتة يا هذا؟ لماذا لا ترد لي ثمنها؟
تعجبت من وقاحته وقلت: لكن أنا لم أشترِ الشوكولاتة.. إنها هدية.
قال: هدية؟ من الذي سيهادي مسخًا؟
ضحك أصدقاؤه في سخرية جعلتني مخضرًّا كعرق خائف فلكمته في وجهه لكمة أخرجت معها كل كرهي له فسالت دماؤه وتدخَّل البعض يحاول الفصل بيننا وتمت إحالتنا للتحقيق في الجامعة واستدعوا بعض الشهود وبالطبع شهدوا ضدي؛ فالمسخ ليس له عزوة مثل محمد البحيري.. يا ليت وجهي كان مثل محمد البحيري لكنت ملكت الدنيا وما فيها ولكني مسخ.. مسخ سيظل كالذئاب يعوي أمام قمر مكتمل!
هل تذكرين يا «مريم» يوم أن أعلنوا عن رحلة للأقصر وأسوان وعرضتِ عليَّ الفكرة؟ لقد كان من أجمل الأيام التي عشتها معك.. حجزت التذكرة، وبعد وصولنا وقف محمد البحيري ساخرًا وقال: مومياء ستذهب لتشاهد مومياء.. شيء غريب حقًّا.. ههههه.
ضحك الجميع، لكني تمالكت نفسي كي لا أفسد الرحلة التي تتمنينها

يا «مريم».. وقفت معك أمام الآثار وتنشقت هواء وتاريخ الفراعنة وقلت لك فجأة: هل تعرفين ريشة ماعت يا «مريم»؟

- لا.. ما هي؟

- إنها أسطورة فرعونية عن أن قلب أي من الموتى في العالم السفلي يتم وزنه بريشة الإلهة ماعت لكي يروا أعماله.. إلهة أنثى هي التي تزن قلب الناس..

ثم قلت وأنا أنظر إلى الأرض: فعلًا الأنثى تستحق أن تكون إلهة.

قلتِ في ارتباك: هل تحب الأساطير لهذه الدرجة؟

- خصوصًا أساطير الحب والقلوب.

فتحتِ هاتفك وأنتِ تشيرين بإصبعك إليه: حسنًا لترَ هذه.. أنا أحب هذه الأسطورة جدًّا.. أسطورة كيوبيد وبسايكي.

قرأتها أمامك وكانت الأسطورة تقول:

اشتهر بسلاحه القوس وأن أي إنسان يصيبه سهم كيوبيد يقع في الحب بشكل جنوني. وقد أصيب كيوبيد في أحد الأيام بسهمه فجرحه وأوقعه في غرام امرأة تُدعى بسايكي. أحب كيوبيد بسايكي، الفتاة الجميلة، حبًّا شديدًا، لكنه لم يكن يريد أن تعلم هي بحبه لها بسبب خوفه من غضب أمه، فأمر والدها أن يذهب بها إلى جزيرة مرعبة بعيدة وأنها هناك ستتزوج، وهنا قال لها إنها ستتزوج شخصًا لن يظهر لها إلا في المساء وأنها لن ترى منه غير طيفه، وحذرها من محاولة رؤية زوجها، لكن فضولها دفعها لمعرفة مَن

هذا الذي تزوَّجته.. وفي يوم من الأيام أشعلت الضوء عليه وهو نائم واكتشفت أنه كيوبيد فازداد حبها له وعندما علمت فينوس بذلك أمرت كيوبيد بالابتعاد عنها وبالفعل تم ذلك، وقامت بسايكي بعدة محاولات ومغامرات لرؤية كيوبيد مرة أخرى، وفي نهاية المطاف وافقت فينوس على زواجهما وعاد لها كيوبيد، وفي رواية أخرى أن فينوس وضعت لعنة تجعل بسايكي تنام ولا تفيق إلا بعد أن يقبلها كيوبيد وأتى وعانقها وقبَّلها.

قلتُ وقطرات الحب تندي على مسام روحي أمام عينيك: جميلة.. جميلة جدًّا يا «مريم».

قلتِ وأنتِ تبتسمين وتفهمين مغزى كلامي: هيا نذهب إلى هذا المعبد لنلتقط صورة.

قلت: أرجوكِ يا «مريم».. أنا لا أحب التصوير.

قلتِ: ولكن إذا قلت لك من أجل خاطري؟ اعتبر هذه الصورة لي.

مثلث برمودا في عينيك.. عمري بين يديك كضوء شموع خافت بين جناحي الريح.

ابتسامتك يا جميلتي تقنع الشمس أنها مجرد رمز في ملكوت الله.. ونظراتك تقنع القمر أنه مجرد حدث ليلي عابر، ورقتك تقنعني أن الحب ليس مجرد إحساس، بل هو شغف كامل يقتل أمامي الشمس والقمر.

أنت لحني الحزين.. امرأة خرجت من بين ضلوع صفات التفضيل..

فُصحى الأنوثة.
في عينيك الكل عاشق إلى أن يثبت العكس!
أخذت الصورة معك، وهو شيء آخر جمعنا غير قطعة الشوكولاتة.. عندما ضرب نور «الفلاش» في وجهي جرحني.. كل نور يجرحني كمسخ قبيح.. لا أريد أن أظهر أبدًا.. أعشق الليل ستَّار العيوب.. لا أحب الشمس التي تجعلني أنظر في الأرض ولا أستطيع أن أنظر إليك يا «مريم».
قبحي هو حزام ناسف للحب، لا أعرف كيف أقترب من الحب دون أن أنفجر فيه وأدمره.
طلبت منك نسخة من الصورة وقابلتك بعد الرحلة، وبعد أن عدنا إلى الجامعة وأعطيتِني نسختي التي قبلتها عندما كنت وحدي في المُدرَّج، ولكن لأني أنظر إلى الأرض دائمًا لم ألحظ وجودك خلفي.. لقد رأيتني وأنا أقبل الصورة.. لقد رأيت الدموع تترقرق في عينيك يا «مريم» مثلي.. كان الوقت يقف أمام تلك اللحظة والعالم ينحني للحظة كتلك فيها القلوب في حالة صفاء كامل وصوفية مجنونة عاشقة.
كان صوتك كأنه ينتحب وأنتِ تقولين: هل أعجبتك الصورة؟ هل رأيت كم هي جميلة كي تشاركنا الصور بعد ذلك؟
قلت في خجل: شكرًا يا «مريم».. شكرًا على كل شيء..
كان هذا هو الحوار المعلن بيني وبينك ولكن الحوار الصامت كنت

كأني أسمعه وكأنك تقولين: لماذا لا تقول «أحبك»؟ لماذا؟ ما الذي يجعلك تكتم أنفاس هذه الكلمة في صدرك؟

وأقول لنفسي: لا أستطيع.. كيف أعذبك معي؟! كيف ستقضين عمرك مع دميم مثلي؟! لا أستطيع يا «مريم» أن أنزل بكِ من سابع سماء إلى سابع أرض.. التضحية بقلبي أفضل من أن أضحي بكِ يا «مريم».. أفضل بكثير.

هناك قصة قصيرة للكاتب المسرحي العظيم «آرثر ميللر» اسمها «سيئو الحظ»، وأظن أنني منهم.. أنا فعلًا سيئ الحظ.. آرثر ميللر، هذا الكاتب العملاق، الذي تزوج مارلين مونرو وفشلت زيجته..

أظن أن الزواج ليس مجرد شراكة، بل هو حالة اندماج روحي كاملة ولا أحب لفظ «شريك الحياة»، بل لا بد أن يصبح الزوج أو الزوجة هو الحياة نفسها وليس مجرد شريك فيها..

وليس مجرد «استقرار»، بل هو أن يصبح وطننا مَن نحب ونتزوج. وليس مجرد «فستان أبيض» بل هو عمر أبيض وقلب أبيض وجنة روحين تعيشان أقصى حالات السعادة.. وإن لم يكن الزواج سيتمم هذه الشروط فلا داعي له على الإطلاق.

كم أتمنى يا «مريم» أن تكوني زوجتي، ولكنه حلم بعيد المنال.. بل إنه نصف معجزة ونصف مستحيل كعينيك.

كم أكره محمد البحيري، إنه كاللصوص، يريد أن يخطف نور عينيك من أمامي.. عينيك «العشتاريتين» كما الإلهة عشتار التي تحدَّث

عنها الشاعر العظيم بدر شاكر السياب وقال في قصيدته كما أريد أن أقول في عينيك:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر..

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر..

عيناك حين تبسمان تورق الكروم..

وترقص الأضواء كالأقمار في نهر.

أتذكرين حين لم تأتي يا «مريم» للجامعة لعدة أيام وبدأ القلق يعتصرني كأبٍ غاضب حتى أخذت قراري المجنون وقلت لـ«حسام» فجأة: سأذهب إليها.

قال في دهشة: من؟!

قلت في إصرار: إلى «مريم».. من المؤكد أن هناك شيئًا قد أصابها.. أسبوع كامل ولم تظهر.

- اعقل يا «رائد» وفكر جيدًا.

- لا يا «حسام»، لا بد أن أذهب.. هذه المواقف تحتاج لحسم يا «حسام».. اختياراتك الضعيفة وأفكارك ليس هذا وقتها.

خرجت يومها إلى بيتكِ بحجة تسليمك بعض الأوراق وفتحت لي أمك الباب وقالت: أهلا يا بني.. تفضل.

حاولت أن تداري امتعاضها من وجهي وكأن هناك من حكى لها عني وهي كانت تتوقع هذا القبح فلم تتعجب كثيرًا.

- شكرًا يا سيدتي.. هل «مريم» موجودة؟

قالت في أسى: «مريم» مريضة جدًّا.. ادعُ لها.
- هل من الممكن أن أراها؟ أرجوك.
على الرغم من حيرتها فإنها قالت: تفضل.. انتظر قليلًا سأناديها.. لكنها متعبة، فحاول أن تسرع.. وهات هذا الورق أضعه لك هنا.
ظهرتِ أنتِ أمامي منهكة القوى ومريضة وكاد قلبي يتمزق وقلت: سلامتك يا «مريم».. لقد قلقت عليكِ.. أنا آسف إذا حضرت في وقت غير مناسب.
- لا تقُل هذا.. زيارتك غالية جدًّا.
- إن شاء الله تتحسنين بسرعة.. لقد أحضرت لك قطعة شوكولاتة.. هههه، على سبيل رد الهدية.
قلتِ في ابتسامة شاحبة من المرض: شكرًا لك.. هدية مقبولة.. كيف الحال في الجامعة؟
تحدثنا قليلًا عن الجامعة وبعض المحاضرات بشكل خاطف حتى رددتِ فجأة: هل تعرف أني اكتشفت أننا نعرف بعضنا منذ الطفولة؟
قلت في لهجة عاشق: أنا أشعر أني أعرفك مذ زمن طويل فعلًا.
همستِ في خجل: لا، أنت تعرفني.. وهذه حقيقة وليس مجرد إحساس.
- كيف؟
- أمي قالت لي إنها تعرفك عندما حدثتها عنك.. وإنك كنت معي في مرحلة «الحضانة».. وإني قد مرضت ولازمت الفراش في طفولتي

وجئت أنت تزورني ونحن طفلان وقلت: أرجوكم دعوني أرَ «مريم»..
أرجوكم.

لم أتمالك نفسي أمام كلماتك التي جاءت كخطوات كاتب متردد في لحظة تأمل أطار بقدميه سرب حمام يأكل من الأرض.. نعم كان نبضي كسرب حمام جائع لكل شيء فيك.

أنتِ دفقة نور يا حبيبتي.. إن تواضعتِ كنتِ كالبدر.. لو لم يكرمك الله لكنتِ ملاكًا فما بالك بكرمه؟

عيناك الثلجيتان تجمِّدان كل ما حولك بين عشية وضحاها.

- أرأيت كيف هو القدر؟

قلت وأنا أسير في عينيك: نعم أراه.. منذ سنة كاملة.

كنتِ تعلمين ما أقصده.. تريدين أن أنطقها.. لكني لا أستطيع يا «مريم».. لا أستطيع حتى لو أردتِ أن تريحي كبرياءك الأنثوية.. تريدين أن تسمعيها ولكني لا أريد أن أعذبك بها.. من يعشق المسخ يا «مريم»؟ ستكون مجرد شفقة.. وأنا أحذر من الشفقة وأعرف ما تفعله كتلك الرواية التي قرأتها وتحدث عنها يوسف السباعي في رواية «فديتك يا ليلى».. نعم يا «مريم».. حذارِ من الشفقة!

حتى إن كانت الحياة الآن كسجادة حريرية مريحة، فأنا أحذر دائمًا من الشر عند طرفها؛ فقد يسحبها فجأة فأقع على ظهري ولا حيلة لي.

كل مَن أحببت يا «مريم» قد أهديه زهرة، إلا أنتِ يا عزيزتي، فأنا أهديكِ للربيع زهرته الجميلة الأنيقة البريئة.
جاءت الأم تسأل مرة أخرى: هل تشرب شيئًا يا حبيبي؟
- شكرًا لك، سأرحل الآن.. كنت أطمئن فقط على «مريم» وها قد طمأنتني بفضل الله.
- مع السلامة يا بني.. نراك على خير.
خرجت من البيت وأنا مليء بالشجون كقلب طفل محمل بذخائر الأمنيات.. خرجت لا أرى الشارع ولا الناس ولا الأماكن.. لقد توقفت عند هذه اللحظة، إنها لحظة «الزمكان»، أو قل إني وجدت «الألف» كما قال باولو كويلو.. نعم لقد كنت معها في «الألف».
آه يا «مريم».. إنها أيام جميلة منذ سنوات طويلة، والآن تبكون على محمد البحيري.. هل حقًّا يستحق دموعكم؟ لقد سمعته يا «مريم».. إنكِ بالنسبة له مجرد لعبة شهوة.. إنكِ مجرد شيء يلهو به لفترة ويداعب جسدك الجميل.. هو لا يعرف إلا لغة الرهان ولا يعرف لغة العشاق.. أنقذتك منه يا «مريم».. أنا مخلِّصك وحامل صليبك وعذابك يا حبيبتي.
هل تبكين؟ هل أحببتِه حقًّا؟ هل استطاع أن يوقعك في فخه القذر؟ لا أصدق أنكم تبكون على هذا النذل الكاذب.. لقد خلَّصت الدنيا منه ومن شروره.
كنت أنتظرك دائمًا وأقول: قريبًا ستكون «مريم» لي.. ثم لا أستطيع

أن أصارحك بحبي..
«قريبًا» هي كلمة، ولكنها للعاشقين جملة كاملة.
صار الحب بالنسبة لي كسمٍّ قاتل في الصحراء ولكني أشعر بالعطش..
ربما هو سراب وأيضًا مسموم، ولكن عطشي قد جاوز الحد.
الحب يا «مريم» يحدث «مرة واحدة» في الحياة، ولكنه يمنحك الحياة «مرة واحدة».
اليوم سأذهب بعد رؤيتي لهذا المشهد العذب من بكائكم إلى بيت «حسام».. ربما سيتعجب من أين لي بعنوانه بعد كل هذه السنوات.. ولكني عرفت عنه كل شيء.. كنت أتابع كل أخباركم.. كل أخبار دفعتي العزيزة كنت أعرفها من صديقتنا القديمة «يارا»، كانت دائمًا معنا في «الشلة» وكانت تحكي دائمًا باستفاضة، إنها ليست ثرثارة، لكنها تحب دائمًا الكلام باستفاضة عن كل أخبار الناس.
عرفت منها أن محمد البحيري قد تقدَّم لكِ يا «مريم» وعرفت ميعاد الفرح وخططت لكل شيء.
الآن حان وقت ذهابي إلى «حسام»، ولكن بعد أن أُحضر هذا الصندوق.. صندوق أسراري.. ربما لن يفتحه أحد أبدًا إلا أنا.. أو أنتِ يا «مريم».. أنتِ الوحيدة التي سأسمح لها أن ترى ما في هذا الصندوق يومًا ما.

«سارة»

على الرغم من أنه كان يقول لي دائمًا كلامًا عذبًا رقيقًا، فإنه كان أيضًا يعاملني بقسوة.. «رائد» شخصية لن تستطيع أن تتعامل معها أبدًا إن لم تعِش معها مثلي فترة طويلة.. إنه متقلب المزاج بشكل مريب، لكنه عطوف وحنون جدًّا وقلبه أبيض، كما يقولون، لكنه ليس ضعيفا.. بل إنه يصبح أحيانًا كالمارد.. وعلى الرغم من قبحه وفقدانه الثقة فإنني أراه أحيانًا وكأنه أقوى الناس.

لقد اختار أن يترك وظيفته ويعيش معزولًا عن الناس وأنا معه.. قال إنه لن يتحمل أبدًا نظرات الناس في كل مكان، سيختبئ منهم في حصن حصين.. قال إنه لو زادت عصبيته على حدها سيرتكب جريمة.. ترك إخوته وحمل الجزء الخاص من إرث أبيه ورحل.. عاش وحيدًا ومن دون عمل، يعتمد على فائدة البنوك من الوديعة، وهو مبلغ مقبول، ولكنه ليس ثريًّا جدًّا كما يعتقد البعض، إنه كما يقال «مستور» أو أعلى من ذلك بقليل.

سألته مرة: إذا كنت تملك هذا المال، فلماذا لم تفكر أن تُجري العملية؟

- لم أفكر؟! طوال اليوم أنظر إلى نفسي في المرآة يا «سارة».. لقد فعلت كل ما هو ممكن وأجريت عمليتين فاشلتين وكانت آثارهما سيئة جدًّا.. بالإضافة إلى الحقن التي حقنتها بسبب عدم

«السيمترية» والتناسق الظاهر في وجهي، ولكن بلا أمل.. كانت آثارهما أسوأ.. الطب هنا نخاسة يا «سارة».. لقد أصبحت أخاف أن أدخل غرفة عمليات وأخرج ميتًا.. مع أني ميت بالفعل وأنا حي ومدفون في حارة لا أعرفها مع ناس لا أعرفهم.

- أنت في عيني أجمل من كل الناس.

- أنتِ من تهونين عليَّ الدنيا يا «سارة».. لا أعرف ما الذي كنت أفعله قبلك؟

- هل تحبني يا «رائد»؟

- أنتِ عزيزة جدًّا عليَّ.. لكن الحب ربما لم يأتِ وقته يا «سارة».

كنت أعرف أنه لا يحبني.. كان يرى معي الدنيا أجمل، لكنه لم يصل إلى مرحلة الحب، كان يرى فيَّ الاستحواذ على تحدٍّ أمام نفسه أنا لا أفهمه ولكن يشعر كالمنتصرين.

قال لي أخي ذات يوم: «رائد» قصة كبيرة جدًّا لا نعرفها.

- «رائد» أطيب مَن رأيت.

قال بشك: حسنًا حسنًا.. كما ترين.. ولكن احترسي.

كنت أحبه.. نعم أحب هذا المسخ، لا أعرف هل هي الشفقة أم أني فعلًا أحببته.. ربما أني رأيت مسوخًا أكثر منه على الرغم من وجوههم البريئة، أما هو فوجهه كالمسوخ وقلبه كالملائكة.. إنه إنسان طاهر ونقي ويعاملني كحبيبته ولا يحرمني من أي شيء، حتى إني أقضي معه معظم اليوم قبل أن أذهب لبيتنا وأعيش مع أخي.

لولاه لتم طردنا من البيت بسبب الإيجار المتأخر، ولولاه لبقيت رهينة كل الرجال في كل البارات وتتم معاملتي أسوأ معاملة من قِبل سياسيين ولاعبي كرة ونجوم فن وصحفيين.. كلهم مرضى.. العاهرة هي من تستطيع أن تقول لك بكل صراحة من هم هؤلاء.. تستطيع أن تقول لك الخفايا الحقيقية لكل شخصية وأمراضه الملاحقة له.. كلهم مرضى.. منهم من يعذب بالكرباج ومنهم من يتذلل لك وتراهم في النهاية أمامك على الصحف والمجلات وشاشات التلفاز كأنهم حاملو همِّ الفضيلة والشرف.. هذا هو حال المجتمع.. مجتمع خاوٍ وهشّ وممسوس بالكذب والخداع.. إنه مثل أكلة جميلة وصفتها العلقم.

أنا أشرف من بعض السياسيين.. أنا لا أقامر بوطن.. أنا لا أخدع الناس في الثمن.. أنا لا أدعي التضحية.. أنا لا أمارس متعتي على نفقة الدولة!

أنا أشرف من بعض الصحفيين.. أنا لا أبيع الكلمة لمن يدفع أكثر.. بل أبيع الجسد.. أنا لا أبيع الحقيقة بل أبيع جسدي.. أنا لا أبيع مبادئي فأنا بلا مبادئ.. أما هم فيتظاهرون بالمبادئ وهم أبعد الناس عنها. رضي أخي بحياته وبحياتي لأنه يئس من هذا البلد.. يئس من كل شيء.. كان من أوائل الدفعة ولم يتم تعيينه.. وقدم عشرات الأبحاث ولم يلتفت إليها أحد.. تم الزج به ذات يوم في إحدى القضايا السياسية على الرغم من أنه لم يكن طرفًا فيها، ثم أخرجوه

في النهاية.. لقد عانى الأمرَّين في هذا البلد الذي لا يرحم الضعفاء كالقدر، بل إن القدر أرحم منه.

كنا ذات يوم في المستشفى نزور أمي وهي في حالة حرجة وقالت: طمئني عليك يا «سالم» وأنتِ يا «سارة».. هل وجدتما عملًا؟

نظر «سالم» إليَّ في حسرة وقال: نعم يا أمي وجدنا، بمرتب جيد ومناسب.. لا تقلقي.

دمعت عيناي وقلتُ: لا تقلقي يا أمي سنوفر لكِ كل ما تحتاجينه.. كأن أبي معنا تمامًا.. «سالم» يقف في وجه أي تحدٍّ.

خرج «سالم» يشرب سيجارة بعصبية وقلت له أمام باب الغرفة: اهدأ قليلًا يا «سالم».

قال في غضب عارم: ملعون هذا البلد الذي جعلنا نصل إلى هذا.. «ميتين أم» الفساد الذي لا ينتهي.

قلت: أرجوك يا «سالم».. الناس تنظر إلينا.

سحب نفسًا آخر من سيجارته وقال في تحدٍّ: سيعرفون يومًا من هو «سالم توفيق».. أولاد القحبة سيعرفون جيدًا.

يشعر بالحسرة منذ أن صفعه الدكتور «حامد البغدادي» في كلية العلوم لأنه قدَّم بحثه الذي قالوا له إنه سيكون حديث الساعة، لكنه قوبل باستهتار واضح وتعالٍ من الدكتور، حتى تعصب «سالم» وقال: كيف يا سيدي؟ من الواضح أنك لم تقرأه حتى؟ إلى متى سيستمر هذا الفساد؟

الدكتور: ماذا تقصد؟ هل جُننت؟

«سالم»: بالطبع قد جُننت من تصرفاتكم وفسادكم والبيروقراطية العفنة التي أغرقتم فيها البلد.. كان من الممكن أن نرى هذا الوطن في أفضل صورة، ولكنكم أغرقتموه في طينتكم.. أنت مثلهم يا دكتور.. مثل كل شيء ملوَّث.. مثل هواء البلد الملوث وتربته الملوثة.. مصر جميلة، ولكننا لا نفلح إلا في أغانٍ وطنية نخدر بها الناس يا سيدي.. مصر جميلة فعلًا.. لكن الأوساخ استوطنوها.. الأوساخ مثلك.

صفعه الدكتور على وجهه فثار «سالم» ولكمه في وجهه حتى جاء الحرس وتم تحرير محضر وتلفيق قضية له تخص أمورًا سياسية وخرج بعد فترة بعد أن أقنع البعض الدكتور بمسامحته والتدخل لإنقاذه.

في هذا البلد، الظالمُ قد يتنازل لإنقاذ المظلوم.. ياللعجب.

الجلاد قد يحن ويجلد الضحية برقة ونعومة!!

في هذا البلد، لن يوجد حد أقصى للأجور؛ لأن الحد الأقصى للفساد قد وصلنا إليه بالفعل!!

منذ هذا اليوم وأنا أرى أخي شخصًا غريبًا يرضى بأي شيء وبأي ثمن.. إنه الآن مستعد أن يبيع كل مبادئه من أجل الانتقام ومن أجل المال ويردد: «في يوم هتعرفوا مين هو سالم توفيق».

في أول يوم عرفت فيه «رائد» وشعرت له بالارتياح كنت أظنه خبيرًا بأمور النساء طالما وقف أمام البار والتقطني بهذا الشكل، على

الرغم من قبح مظهره.. لكني اكتشفت أني أول تجربة له.. كانت ليلتنا الأولى في الشقة عندما حاول أن يخلع عني «البرا» ولم يستطِع، إنه حتى لا يعرف من أي مكان يتم فتحه بالتحديد.

ظل يهيم بأصابعه على صدري كأنه يتحسس عالمًا جديدًا.. عالمًا خياليًّا جديدًا من الحرير واللبن.. ثم أدارني فجأة عندما عجز عن فتحه ففتحته له وظهرت دهشته وثورته الجنسية العارمة.

قلت باسمةً: انتظر فقط.. ليس بهذه السرعة! لا تتعجل.. الليل طويل.

- الليل طويل ولا بد أن نستغل كل لحظة فيه.. هذا الجسد هو أشهى ما رأيت في حياتي.

كان يظهر من طريقته، خصوصًا مع خبرتي في هذا المجال، أنه مبتدئ.. إنه أول مرة يلمس امرأة حتى في طريقة إيلاجه، كان كقلم باركر ناعم ورشيق على الرغم من أني تعودت على دق الشواكيش والعنف المفرط، لكنه كان رومانسيًّا حتى في الجنس.

بعد أن أنهى رحلة القفز الممتع فوقي وانسياب أعصابه على رجرجة جسدي المرتعش، قال في هدوء: لا يوجد أفضل من سيجارة ناعمة الآن.. هل معك؟

قلت: نعم.. تفضل.

عندما أشعلت له السيجارة اهتاج مرة أخرى ومارس معي هذه المرة لمدة تزيد على الساعة حتى قلت له وأنا مستمتعة: كفى يا

«رائد» ستقتلني.. وفِّر قليلًا للغد.

كان أيره هذه المرة ليس كقلم الباركر بل كمطرقة في فيلم شاهدته واسمه thor.

رجل غريب جدًّا.. مرة ناعم وحنون، ومرة عنيف إلى حد الجنون، ولكني أصبحت لا أرى فيه المسخ الذي أعرف أنه إنسان جميل.. حتى إنني أراه جميلًا أيضًا.. بعد أن تعوَّدت على ملامحه.. لم أعد أراها قبيحة، بل لقد غيَّر إعجابي به معاييري عن الجمال.. من الواضح أن الحب يغيِّر فينا كل شيء حتى معايير الجمال نفسه.. إننا نرى من نحب هو أجمل الناس وأشهى الناس وأطيب الناس.

رقصتُ له على بعض الأغاني الشعبية، كان يستمتع برقصي وهو يدخن السيجارة التي من الواضح أيضًا أنها أول مرة له.. إنها أول مرة يعيش تقريبًا في حياته.. إنها أول مرة من كل شيء.

استمتعت بدوري كامرأة تأخذ بطريق هذا الرجل للحياة.. ربما يكون نوعًا من الغرور الأنثوي ولكني أحببت دوري.. دوري حتى وأنا أعلمه خلع «البرا» بطريقة سهلة وعفوية حتى أصبح خبيرًا فيه. لقد غيَّر الجنس كل شيء.. لقد حصل على قدر من الثقة في نفسه لم يحظَ به من قبلُ، بل لقد أصبح ينظر إلى عيني على الرغم من أنه لم ينظر إلى أي حد تقريبًا في عينيه خشية أن يظهر قبحه للناس.

قال لي مرة: أريد أخاك في شيء مهم.

- خير؟ هل ستطلب يدي للزواج؟ هههههه.

- يا «سارة».. أنتِ حلم للجميع، ولكني لا أستطيع الزواج أبدًا.
- لماذا يا «رائد»؟ كل فتاة تتمنى...
قال في غضب: لا تكذبي يا «سارة».. لا توجد أي فتاة تتمنى من هو مثلي.. لا ترددي هذه الجملة لأنها تجرحني أكثر.. كيف تتمناني أي فتاة؟ ألا ترونني جيدًا، أم أن المرأة التي أنظر إليها كاذبة؟
أنا ذئب يا «سارة».. ذئب ليس له إلا الليل يعوي فيه وامرأة طيبة مثلك ترضى به.
- وهل تراني أقل من غيري من البنات؟ لقد أهنتني.
- لا أقصد يا «سارة» صدقيني.. أقصد أن قلبك الطيب هو الذي جعلك ترينني جميلًا.. ولكن غيرك ينهشون لحمي ويقتلونني بنظراتهم وهم لا يشعرون. هل تعلمين أن عامل الديليفري كان يسلمني الورقة باستسلام وهو ينظر إليَّ بخوف؟ هل تعلمين أن بعض الناس ينظرون إليَّ بحسرة ويظنوني مريضًا؟
هل تعلمين أن بعض الشحاذين دعوا لي وقالوا: «شفاك الله»؟
- لا يهمني كل هذا.. المهم كيف أراك.
- صدقيني يا «سارة».. هم يرونني بطريقة أخرى.. رأيت هذا في عيونهم.
- وهل نظرة الناس كل شيء؟
- في الواقع نعم للأسف.
- هذا هو الضعف.

- بل منتهى الواقعية.

- فلتكن خياليًّا وعِش في عالم الخيال ما دام الواقع أقسى.

- حتى في الأحلام يطاردونني يا «سارة».. أنا لا أحلم بالملائكة.

قلت بنبرة حزينة مقهورة: لأنك ملاك يا «رائد».. لأنك ملاك يا حبيبي.

عانقني في هذا اليوم عناقًا طويلًا شعرت كأنه يحبني، على الرغم من أنه ينكر ذلك تمامًا ويقول لي إنه لا يستطيع أن يعشق.

قلت له في يوم: ولماذا لا تحبني يا «رائد» وأنت تملك هذا القلب؟

- لا تسألي أبدًا لماذا أَحبَّ أحدهم أو لم يحب.. الحب إذا كان بسبب فهو كالعدم.

- أنا أحبك دون سبب.

- وأنا لم أصل لهذه الدرجة معك.. أنا معك لسبب.

- قد يولد الحب مع الوقت.

- الحب ليس مولودًا.. الحب خالق.

- ولماذا لم يخلقك مثلما خلق غيرك؟

قال صارخًا وضاربًا المنضدة: خلقني وعصيته.. أنا شيطان.

قلت في تحدٍّ: ولهذا أغويتني بحبك؟

- وعلى الرغم من هذا ستظلين ملاكًا في عيني.

- ملاك مرفوض في عالم شياطين؟

- لا أستطيع أن أعيش معك في ناري.

- لكن أنا أرضى بها.

- هذا تنازل للوصول للجحيم.

- في الحب التنازل منزلة.. لقد قلتها لي من قبل.

قال في انفعال: أنا أحب يا «سارة».. أحب.. ولا أستطيع أن أحب أحدًا آخر.. قلبي انتهى أمره وحُسم.

كنت أعرف أنه يعشق.. النساء لديهن حدس خارق فيما يخص قلوب الرجال وميولهم.. تشعر المرأة بلمسة واحدة كل مشاعر الرجل بينما لن يستطيع الرجل مهما حاول أن يعرف حقيقة مشاعر المرأة.

قال لي ذات مرة: «إننا نشعر الحب عندما يصبح قلبنا كلوحة الموناليزا.. لا تعرف حقيقة إحساسه».

أعشقك يا «رائد» ولكنك تحب غيري.. كم تمنيت ألَّا أعيش أبدًا هذه القصة.. قصة طالما سمعتها وتألمت لها حتى وقعت فيها.. إنه الحب من طرف واحد! إنه الألم من طرف واحد.. وهو العذاب من كل الأطراف..

حب مصيره الموت والاختفاء.. حب دون مقابل ودون استقبال حافل.. حب تبذل فيه كل شيء ولا يعطيك أي شيء.. سيقول البعض تضحية.. ولكن حتى التضحية لها نهاية.. بل أحيانًا التضحية تكون لحظة.. بينما الحب من طرف واحد عمر من العذاب.

كنت أشعر بهذا منذ البداية حينما دخلت عليه مرة وهو مستغرق

في التأمل أمام شاشة الكمبيوتر ويمسك صورة في يديه ويدندن بصوت حزين مع أغنية لقصيدة محمود درويش بصوت أميمة الخليل.. لم أكن أعرفها ولكنه حكى لي عنها وعن أغانيها الرائعة وكان يغني وهو ينظر للصورة:

تكبر تكبر فمهما يكن من جفاك..

ستبقى بعيني ولحمي ملاك..

تكبر تكبر فمهما يكن من جفاك..

وتبقى كما شاء لي حبنا أن أراك..

نسيمك عنبر وأرضك سكر..

وإني أحبك آه أكثر.

كانت هذه اللحظة حزينة جدًّا، لدرجة أني ارتجفت لها.. ما أصعب أن ترى «رائد» بوجهه الحزين وهو يغني أغنية رومانسية ويكاد يبكي ولا يشعر حتى بي خلفه.. أنا يا «رائد» التي ستبقى بين عيني ولحمي ملاك.. أنا ولست هي.. إنها ستراك دائمًا مثلهم كالمسخ.. هي ستراك مسخًا بينما أنا أراك ملاكًا رقيقًا.

كان «رائد» غير عشرات غيره من الرجال.. إنه يكلمني عن كل شيء ويفتح قلبه على كل شيء.. إنه حتى كلمني ذات مرة عن أوديسيوس وزوجته بينلوب وكيف عاد من معركته وهاجم كل من حاول أن يأخذها منه.. قال لي ذات مرة إنه أوديسيوس وسيعود من المعركة، بل إنه سينتصر انتصارًا ساحقًا.

حدثني عن قصة تولستوي وحبه للفقراء ورحمته الواسعة ورؤيته أن المال يجعلنا نخسر الكثير ويضيِّع أجيالًا أحيانًا.. حدثني عن الطوباوية وعن الفضيلة وعن نظرية الكهف لأفلاطون.. ربما يعتبره البعض مجنونًا لأنه يحدِّث عاهرة عن هذا كله ولكني كنت ذات يوم جامعية.. أنا لست لقيطة.. أنا لست مولودة كابنة ليل، ولكن الليل اختارني ذات ليلة أن أكون ابنته.. وأريد أن أكون مع «رائد» ابنة النهار وابنة الحب!

كان قد خرج يومًا وتركني في المنزل.. وجدت في جيبه ورقة كان قد سهر وكتبها أمس.. نعم رأيته وهو يكتب بتمعُّن وكان لديَّ فضول أن أعرف ما الذي يكتبه.. إنه يكتب كثيرًا.. طوال اليوم تقريبًا، ثم يغلق الصندوق.. هذا الصندوق ثقيل جدًّا ولكني لا أعرف محتواه وقد حذرني مرارًا من محاولة لمسه حتى.. وهو يغلقه بأكثر من قفل.. ولكني رأيت محتوى الورقة فقط وكان مكتوبًا فيها بخط يديه:

«لا تُعطِ لنفسك أبدًا تصريحًا بالحب.. ولا تشهر سيفك مدعيًا دخول حصن الحب.. فالحب وحصنه يطلبانك بإرادتهما، والتطوع مرفوض.. فتلك شروطه.

ولا تضع الشروط في من تتخذها خليلة حياتك وكل روحك، فستأتي لفرض شرط الحب، وهو قرار بلا رجعة وجبر بلا اختيار.

ولكن دع الحب يغرقك واستسلم لقوة موجه ودع هذا الإحساس

يسري منك مسرى الدماء.. فتعيش في روحك الرغبة في الحياة في العذاب أو السعادة بلا تفرقة بينهما.

وإن كان حبك صادقًا ووصل إلى هذا العمق في نفسك وانقلبت حياتك هذا المنقلب فلا تستتر.. أقدم ولا تخجل.. وإن زرعت فيك تلك العطور وتعتقت مع مرور الزمن فلا تقُل إنه الحب الثاني، بل إن عطرك الأول وصل إلى ذروة جماله وأريجه، وجاءت تبعات الزلزال الأول التي لن تنسيك الزلزال نفسه.

نعم يا صديقي.. سيظل الحب الأول عطرك الذي لن تنساه وزلزالك الذي لن تنسى رجفته وصديقك الذي لن تنسى صداقته وقاتلك الذي لن تنسى جرمه..

أما إن نسيت عطرك فأنت متغير الطباع غريب، وإن نسيت زلزالك فأنت ضعيف الحس عنيد.. نعم إنك لن تنساه أبدًا، إنه عذاب الحب.. إنها لذة ولا تدري».

كانت تلك سطوره الرقيقة التي تأكدت معها أنه يعيش كليًا في ملكوت الحب الأول.. «رائد» لن يحبني أبدًا مهما حاولت.

«رائد الألفي»

لم يغِب عن بالي هذا الحلم أبدًا.. كان كابوسًا مكتمل التفاصيل.. تكتمل أركان جريمة الرعب فيه..

كانت «مريم» تضيع مني مرة أخرى.. كنت أحلم أن أحد رجال الأعمال بنفوذه وماله سيتقدم لخطوبة «مريم».. سيخطفها مني مثل غيره ممن أعطوا لأنفسهم حق اغتصاب الحلم وسلب الحياة مني..

«مريم» تضيع أمام سطوة النفوذ وقوة المال.. رجل أعمال لم أرَه في حياتي ولكني حلمت به.. كان الحوار بيننا في الحلم كأنه حقيقي أشعر به كما أشعر بدقات قلبي الخائفة المرتجفة..

بدأ الحلم بأني في أحد المكاتب الفخمة في الطابق السادس لشركة لم أرَها من قبلُ، وقد وجهت حديثي للسكرتيرة قائلًا: أستاذ أسامة إذا سمحتِ لي.

دخلت السكرتيرة ومعها كارت صغير لتنظيم المواعيد وطرقت الباب قائلة: هناك شخص في الخارج ينتظرك.

سمعت صوته يردد: من هذا؟ هل أخذ موعدًا؟

قالت السكرتيرة في هدوء: لا، ولكنه يقول إن الموضوع خطير جدًّا.

- إذًا، اسمحي له بالدخول لنرى ماذا يريد.

ظهر من نظرته أنه مفزوع من وجهي، لكنه تمالك أعصابه وقال

مرحِّبًا: تفضل.. أي موضوع تريد أن تحدثني فيه؟
قلت له وأنا أقدم نفسي: أنا اسمي «رائد».
- أهلًا وسهلًا.. أنا في خدمتك.
- أريد منك أن تبتعد عن «مريم».
وقف فجأة صارخًا وهو يهددني بإصبعه: هل جُننت؟ كيف تحدثني هكذا؟
- اجلس رجاءً ولنتكلم في هدوء.
ثم استطردتُ:
- هل تحب «مريم» حقًّا، أم هي مجرد تعويض لابنٍ فقد أمه؟
نظر إليَّ نظرة نارية مرة أخرى وهو يقول: لقد زاد الأمر على حده.. أنت فعلًا مختل.
- سأقول لك.. الحب الحقيقي ليس له أسباب بتعريف واضح غير مشروط، لكن أنت تحاول أن تعوِّض أمًّا مفقودة - رحمها الله - بزوجة تحل محلها.. فأنت لن تحافظ على «مريم» لأنها مجرد تعويض ليس أكثر من هذا، وفي الوقت نفسه لن يشعر ابنك أبدًا بأنه وجد أمه؛ لأن الأم الحقيقية لا تعوَّض.. وأنت تعرف هذا جيدًا.
- لكن ما شأنك بكل هذا؟ هل تحبها أنت؟ هل تظن أنها سترضى بمثلك؟
- أنا لن أظلمها معي، ولكني لا أريد أيضًا أن تظلمها معك.
- أنا سأظلمها؟ ألا ترى الشركة التي أنت فيها الآن؟ ألا ترى العظمة

والسيارات في الخارج؟ أنا أسامة الرفاعي.. نار على علم.. أسأظلمها معي؟ من سيناسبها إذًا؟

- هل هذه مواصفات فارس الأحلام؟ سيارات وأموال وشركة؟ صدقني، أنت مسكين.. وقصص حب كبيرة جدًّا كان الفقر طرفًا فيها.. وقصص فاشلة أيضًا كان المال طرفًا فيها.

صاح فجأة: آه.. تناقض نفسك.. إذًا الموضوع ليس له قاعدة.

- أنت من جعلته قاعدة وتحدثت عن سيارتك وأموالك وكأنها مفتاح السعادة.

- إذًا ما السعادة يا فيلسوف العصر؟

- السعادة في الحب وليس في الحاجة.. والفرق بين الحب والسعادة أن السعادة كمال اللحظة لكن الحب لحظة الكمال نفسها.

- ألم أقُل لك إنك فيلسوف؟ كلام كلام كلام أمام إمبراطورية.

- الكلمة الصادقة أقوى من الحياة نفسها.

- أنا كلامي يساوي المال ووقتي من ذهب.

- الأهم، هل ستجد الحب فعلًا؟ هل ستوجِد السعادة لنفسك؟

- الأموال من الممكن أن تسد أي فراغ.

- غسان كنفاني كان يقول: «ليس بوسع أحد أن يملأ مكان أحد».. صدقني «مريم» لن تعوض الزوجة ولا الأم.. أنت موهوم.. موهوم جدًّا.

- ليس لك علاقة بحياتي.

قلت في حزم: الموضوع له علاقة بحياتك، فقلت أن أحذرك.
لقد هددته بالقتل في الحلم.. لقد أصبحت قاتلًا حتى في أحلامي.. أقاتل كل من يريد أن يخطف «مريم».. أحارب كل شيء.. سطوة المال والرغبة والحاجة.. أريد أن أحب «مريم» الحب المطلق.. الحب دون أسباب.

«حجازي عبد الله»

أعمل بالصحافة منذ ما يقرب من ١٥ عامًا تقريبًا، مهنتي علَّمتني أن أجري دائمًا وراء الخبر والتقارير المثيرة عن أحداث حقيقية أو مفبركة.. ربما يقول أحدكم: وهل هذا من شرف المهنة؟ ولكني أقول لكم: إن الصحافة في بلدي علَّمتني أن شرف المهنة كما يقال «مثل عود الكبريت»، وفي مهنتي نحرق هذا العود تقريبًا كل ساعة.
أخبار مثيرة.. فضائح لم تحدث.. جنازات لبشر على قيد الحياة.. الصحافة علَّمتني السعي وراء الخبر وليس وراء الحقيقة.. فالحقيقة نخلقها ونشكلها كيفما نشاء وفي أي لحظة.
جاري هو «حسام الراوي».. أنا تقريبًا صديقه الوحيد؛ فهو لا يعرف في المنطقة إلا أنا، ومع الوقت حكى لي الكثير من أسراره وأنه يعرف امرأة تزوره في أوقات متفرقة، والآن صديقه الجديد الذي يخفيه عني.. لا أعرف من هو.. إنه لا يريد أن يطلعني على سره أبدًا حتى سألته في إحدى الزيارات: هل صديقك بالداخل؟

قال: نعم.. تركته نائمًا.

قلت: ولكن، ما هذا الصندوق العتيق هناك؟

ارتبك وقال: صندوق؟! نعم.. إن به بعض متعلقات والدي - رحمه الله.

لا أعرف ولا أفهم سر هذا الصندوق.. كلما زرته من يومها كان حذرًا

جدًّا من أن أقترب حتى منه، وكان دائمًا ما يخفي صديقه عني.. مرة بحجة أنه نائم ومرة أنه في الخارج، حتى قال لي إنه أنهى زيارته وعاد إلى بيته.. ما الذي يحدث؟ بدأ الحس الصحفي يعمل، وبدأت أشعر أن صديقه لديه الكثير من الأسرار تمامًا كـ«حسام».. إنه شخصية غامضة ظهر فجأة في المنطقة وكل ما يخبرني عنه ذكرياته في الجامعة مع «رائد» وقصص كثيرة بطلها هو «رائد»، على الرغم من أن «رائد» هذا لم يزُره أبدًا في منزله.. هل يكون هو الذي زاره منذ أيام؟ هل هو صديقه الذي يخفيه عني؟ ولكن لماذا؟ ما السر وراءك يا «رائد»؟

سمعت في يوم ما مشاجرة بينه وبين امرأة أظنها بائعة هوى.. وسمعتها تصيح باسم «رائد»؟ هل تحدث مع العاهرة عن «رائد» أيضًا؟ ما العلاقة التي تجمع بين «رائد» وتلك المرأة؟

خرجت المرأة غاضبة وقالت وهي تصرخ: لأنني طوال عمري رخيصة.

كانت سمعة «حسام» في المنطقة ليست على ما يرام، عاش فترات لم يعرف فيها غير النساء.. إنه لا يخرج تقريبًا، إنه دائم الكتابة.. حكى لي كثيرًا عن أن أول من علمه الكتابة «رائد» أيام الجامعة.. قال لي: «رائد» يا أستاذ «حجازي» هو من جعلني أعشق الكتابة.. كنت أكتب ليلًا ونهارًا.. لكنني لم أعرض كتابتي على أحد.. أنا أفرغ شحنة غضب بالقلم فقط.

لم أرَ أيًّا من كتاباته أبدًا؛ فهو كان خجولًا جدًّا بهذا الصدد.. حاولت إقناعه وقلت له ربما أنشر لك شيئًا في الجريدة إلا أنه أصر وغضب مني فترة وقال إن هذا موضوع لا يجب فتحه بيننا مرة ثانية.. كان حساسًا جدًّا وسريع الغضب.

في حقيقة الأمر، إنني كنت صديقه فقط من أجل عملي الصحفي الذي علَّمني أن الغاية تبرر الوسيلة.. لقد تسللت لحياته لأني أعرف أني سأجد مادة خامًا لسلسلة مقالات أو ربما رواية كاملة.. إن حياة «حسام» كنز مليء بالأسرار هو وصديقه، وسأعرفه في يوم ما.

«رائد الألفي»

مرت أيام وأنا في منزل «حسام» بعد الجريمة.. أشعر الآن بالخوف الشديد، وبدأت الوساوس تحيط بي.. هل سيتم اكتشافي؟ هل أزور مسرح الجريمة لأتأكد؟ أخاف أن يكون مصيري كمصير بطل «الجريمة والعقاب» لديستويفسكي.. هل حانت لحظة الشكوك والهلاوس والندم؟ الجريمة تغير فينا شيئًا جوهريًّا.. إنها تجعلنا في حالة غربة عن حقيقتنا.. الجريمة الأولى هي مفتاح بوابة القلق الحقيقية التي لم تكتشفها بعدُ والتي تدخلك بعدها بحر الخوف الذي حتى إن نجوت منه ستجد شاطئًا ملئًا بالأشواك.. إنه الضمير!!

خرجت من الغرفة وقلت لـ«حسام»: هل خرج هذا الرجل؟

- نعم.. اطمئن.. اشرب كوب الشاي هذا.

- أنا خائف يا «حسام».. لقد قتلت.

قال وهو يبلع ريقه: محمد البحيري؟

- أنت تعلم.. أنت تعرف جيدًا أني لا يمكن أن أقتل غيره.

- ولكنك حينما دخلت قلت لي: لقد قتلتهم. من هم يا «رائد»؟

قلت وأنا أنظر للصندوق بحذر: كل من أحبوها وحاربوني في مملكة عينيها يا «حسام».. كل من حاربني في «مريم».

سمعت شهقته التي خرجت كشبح عجوز وقال: كلهم؟

قلت في ثقة: حربي وانتصرت.

- لكنها جريمة يا «رائد».

- الجريمة من أجل الحب واجبة.

- هراء.. أنت الآن قاتل.. هل تفهم ما معنى أن تكون قاتلًا؟

- ألم يقتلوا هم؟ ألم يستبيحوا دم الحب؟ ألم يستبيحوا روحي وتهامزوا على شكلي وجرحوني؟

أمسكت بـ«حسام» من ذراعيه بشدة وغضب عارم ووقفت أمام المرآة أنظر وأقول له: انظر إليَّ يا «حسام».. هل ترى هذا المسخ؟ هذا مسخ ظاهر لكن مسخي الحقيقي أصبح روحي التي شوَّهوها.. حاولوا أن يأخذوا مني كل شيء.. ونجحوا في هذا.. لكن لن ينجحوا في أن يخطفوا مني «مريم».. «مريم» التي عشت من أجلها عمري.

قال صارخًا: أنت مجنون.. أنت لم تقُل لها كلمة أحبك.. كيف ستعرف هي؟

قلت وأنا أضحك بهيستيريا: كانت تشعر.. كانت تحس.. يكفي أن رسالتي وصلت دون أن أقول لها.. «مريم» من حقي.. «مريم» لن تتزوج بعدي أبدًا.. «مريم» لي وليست لي في الوقت نفسه.. سيأخذون مني «مريم» ويتركون لي مرايا وشرخًا في وجهي.. لن يحدث هذا ما دمت على وجه الأرض.

سمعنا صوتًا خارج الباب وعرفنا أنه جار «حسام» الصحفي، كان يحاول التنصت على ما نقول.. فتح «حسام» الباب بسرعة وقال في تحدٍّ بلهجة حازمة: ماذا تريد يا أستاذ «حجازي»؟

قال «حجازي»: ألم تقل لي إن صديقك ليس هنا؟ من معك إذًا؟
قال «حسام» في غضب: أستاذ «حجازي» هذا تجاوز لكل الحدود.. إذا سمحت اتركني الآن ليس معنى أنك تعرفني أن تتنصت عليَّ أيضًا.. أم أن الصحفي بداخلك يريد أن يخرج؟
شعر «حجازي» بالإحراج الشديد وقال: حسنًا يا «حسام»، سأغادر.. أنت حر فيما تفعله.
عاد «حسام» يحدثني مستطردًا: أنت من قتلتهم يا «رائد»؟ معقول؟ أنت؟
- لقد جعلت أحد معارفي يقتل محمد البحيري.. لست أنا بنفسي..
قال في حسرة: ومتى حدث هذا؟
- اليوم.
قال وهو يضرب المنضدة حتى ارتج كوب الشاي: هذا جنون يا «رائد».
قلت وأنا أرتجف: أنت لا تعرف شيئًا.. حاربني في «مريم».. حاربني في «مريم». «مريم» كانت نوارة الدفعة وأنا المسخ.. هي من يحاول الجميع أن يخطفها وأنا الكل لا يصدق أنها قد تنظر إليَّ حتى.. كان لا بد أن أمهِّد طريقًا لنفسي حتى لو لم أصل إلى شيء.. يكفي أن يكون طريقي لـ«مريم» ممهدًا بالزهور.
«حسام» في حسرة أم فقدت ابنها: أنت مريض يا «رائد».
قلت في حسم: أنا أدافع عن الحق.. أنا أدافع عن الحب.

- حب؟ وهل أعلنته في الأساس؟

- الحب لا يحتاج إعلانًا.. الحب إشهاره بمجرد إحساسه..

- ومن الذي أشهرته أمامهم؟

- أمام نفسي وروحي وأمام العالم والله.

- لا تتحدث عن الله وأنت قاتل.

- لا.. أنا الآن عاشق.. ويومًا ستعرف «مريم» كل شيء.

«بول وفرجيني» كانت رواية عن قصة حب مثالية ولكنها ماتت كغيرها من قصص الحب.. قتلها القدر.. ولكني بالقتل صنعت قدري الخاص.. آلاف من قصص الحب تموت على الطرقات وفي موانئ السفن وفي محطات القطارات ولكن قصتي لن تموت.

حربي حرب قيثارة وليست حرب سيف.. حربي حرب قلوب لا أجساد.

في صفة قتلي القانونية سأكون «عاشقًا بفعل فاعل».

اثنان يا «مريم» لا يمكن وصفهما إلا برؤيتهما فقط «الحب والله»..

الحب يا «مريم» أن يحمل العاشق كل وعود الأرض في تلك الأرض الموعودة «قلبه».

وأنا حملت لك كل وعود الأرض، ولكني لم أستطِع أن أهديها إليك، جعلتها سري المقدس.. أريد أن أعطيك براح الغرور في سكون قلبي يا «مريم».. كوني الأنثى التي تريدين وحاولي أن تجعليني الرجل الذي تشتهين أن أكون.. تخيليني عاشقًا عالمًا، رائد فضاء

كوكب صغير يصطدم بقلبك.. شهابًا يمر ويسألك: ما أغلى أمانيك يا «مريم»؟ فتقولين: أن يظل الشهاب دائمًا ويظل الحلم مستمرًّا والحب مستمرًّا.

الشهد يحترق في عينيك يا «مريم» ويحترف الجنون.. رموشك كلوعة المشتاق وصوتك كموسيقى جنائزية لنبضي الحائر..

وجهك أم نور الله منقوش بالقلم وجسد من بدر لا ينطق إلا بالحسن..

كل كلمة منك «أنثى» مستقلة.. كل نظرة منك «حفل زفاف».. معك أعيش مع ألف امرأة وألف حالة.. لا تتكرر أبدًا كل منها.

وكأن عمرك يا «مريم» أكبر من الحب بأعوام أو قُل «بحب ونصف»!

كان قبحي يقف دائمًا حائلًا أمامي وكنت أحاول أن أطمئن نفسي وأن أتصالح مع قبحي الدائم.. نعم.. تصالحوا مع قبحكم تكونوا الأجمل!

كنت أقرأ قصة كل ليلة تطمئنني بأن لقبحي هدفًا وغاية في الحياة، أنني مسخ من أجل شيء ما.. ربما أرادتني الحياة مسخًا لأكون راحة لآخرين أو ليجدوا في قبحي عزاءهم وسلواهم؛ لأنهم لن يصلوا إلى هذا الحد.. جلست مع «حسام» في شقته وقرأت القصة من جديد:

«يُحكى أن رجلًا قصير القامة غريب القسمات في مملكة ما في زمان ما قد هام حبًّا بملكة المكان والزمان التي عجز عن وصفها اللسان وعجز عن حُسنها البيان، أقسم بعض خدم القصر إن الأرض قد

امتدت من تحت قدميها ذات يوم حين ابتسمت وهي تنظر للقمر ولم يصدقه باقي الخدم، ولكن ما صدقه الجميع وآمن به للأبد هو هذا الجمال المشهود الذي لا قيد له ولا حدود.
كان الرجل يسكن في كهف يبعد عن القصر عشرات الأميال، ولكنه يأتي كل عام ويسأل خدم القصر: هل ما زالت الملكة بنفس جمالها؟ فيقول الخدم وهم يتضاحكون على جنون الرجل: نعم أيها المجنون.. هل تقطع كل هذه الأميال كل عام لتسألنا نفس السؤال؟ إنك حقًّا لمجنون كريه الوجه. ويكملون ضحكهم ويتغامزون.
وصل خبر الرجل إلى الملك بنفسه فحار في أمره واستدعى الوزير وقال في حسم: أريد أن أرى هذا الرجل الذي يتحدث عنه الجميع.. يقولون إنه أقبح الناس ويسكن في كهفه وحيدًا ولكنه منذ أن رأى الملكة وهو يسأل عنها كل عام.. ما قصة هذا الرجل يا ترى؟
قال الوزير: لا تهتم بأمره يا مولاي، إنه مجرد رجل ضعيف قبيح.. ولو تشاء نقبض عليه في الحال.
الملك: لا لا.. بل أريد أن يتم استدعاؤه فورًا لأجلس معه وأعرف قصته.
الوزير متعجبًا: ماذا؟ هل يجلس الملك مع مثل هذا المعتوه؟ مقامك أرفع يا مولاي من ألف مثله.
الملك في لهجة حازمة: قلت أريد هذا الرجل في الحال ولا يمسه أحدكم بسوء.. بل أكرموه.

الوزير: أمرك يا مولاي.

خرج الوزير مع خمسة من الحرس وقطع الطريق حتى وصل إلى كهف الرجل الذي كان معروفًا للجميع لأنه أقبح أهل المدينة وصاح: أيها الرجل! أنت.. اخرج إلينا.

خرج القبيح من الكهف ونظر إليهم وقال: ما الأمر؟ لماذا تصيحون؟ هل ستأتونني بإكسير الجمال؟

ضحك الجميع على الرجل الذي يسخر من نفسه وقال الوزير: بل أكثر من ذلك، ستجلس مع الملك شخصيًّا أيها الصعلوك ولا أعرف لماذا يطلبك.

قال القبيح: الملك؟ الملك بنفسه؟ هل سأرى الملكة؟

الوزير ساخرًا: قلت لكم إنه مجنون.. لا أعرف فيما يقحم الملك نفسه.. ياللعجب.

قطعوا الطريق والمراعي الخضراء حتى وصلوا إلى القصر الذي ما إن تراه تحسبه لؤلؤًا منثورًا كأنه قصر من قصور الجنة بناه الملك هدية للملكة منذ وقت طويل.

دخل القبيح وهو يتلفت حوله وكأنه يبحث عن شيء ما أو أحد ما..

قال الوزير: ها هو الرجل يا مولاي كما طلبت.

قال الملك: حسنًا.. اتركنا الآن.

ظل القبيح يتأمل المكان متعجبًا وهو يقول في سره: هل سأرى الملكة؟

قال الملك صائحًا: حدثني أيها الرجل عن أشهى أمنياتك وأحبها إلى قلبك في هذا العالم.

قال القبيح: أن أرى الملكة.. ملكة الخلود والوجود.. ربة الجمال قاتلة القلوب.. إنها أشهى أمنياتي.. فقط أن أراها وأستزيد من شهد جمالها ما يستر قبحي ومن عطاء أريجها ما يغطي خجلي ومن شفاء نظرتها ما يجدد أملي.

قال الملك: ألا تخاف أن تقول هذا الجمال أمام الملك أيها الرجل؟ ألا تعرف أني قد أقتلك لأنك تتحدث عن زوجتي حديث العشاق؟

قال القبيح: أنا لا أبالي بالغيرة أمام جمال العطاء.. ولا أبالي بالمنافسة أمام روعة الكرم.. وجمالها معطاء كريم ولا يبخل على عاشق ولا يضن على مشتاق.. أنا ليس لي أمل أستطيع أن أمتطيه كالحصان لأخطفها منك.. وليس لي جمالك كي أستطيع أن أحتضن سحرها بسحري.. وليس لي مالُك كي أستطيع أن أفيض به على الشعب من سعادة نظرتها إليَّ.. أنا لا أملك أي شيء كي تخاف مني فاترك لي عطاء الجمال واستأثر أنت بالجمال نفسه.

قال الملك متأثرًا بحديث الرجل: حدثني عن الجمال أيها الرجل.

قال القبيح: ما أشهى الجمال.. وكم أفتقده في نفسي.. الجمال هو الله.. الجمال هو لحظة خلق العالم تتجدد أمامك كل لحظة.. زهرة العيون وسدرة منتهى القلب..

الجمال هو منهل الروح والجسد وغاية الحياة في وجودها وغاية

القلوب في طوافها حول جمال العالم.
الجمال هو أقصى ما فقدته وبكيت عليه وأقسى من فقدته ولم يستدل على عنواني مرة أخرى.
وعلى الرغم من أن الجمال هو الحب فإن الجمال أيضًا نقيض الحب، وهذا هو المستحيل بعينه.. فأنت لن تعرف الحب إلا في عيون من يملكه، بينما لن تعرف قيمة الجمال إلا في عيون من فقدوه!
قال الملك: والله يا أيها الرجل لو كان معي طلبك ولو كان معي إكسير الجمال ما تأخرت عليك لحظة.
قال القبيح: أريد أن أرى الملكة ولو لمرة أخيرة.
استدعى الملك زوجته وقد استدر الرجل عطفه وأثَّر فيه فقال: استدعوا الملكة حالًا.
دخلت الملكة إليهما ولم يتمالك الرجل نفسه من البكاء وقال: إنه الأمل.. هذا الجمال هو الأمل.. ربما سأصل إليه يومًا قبل أن أموت.. ربما سأجد الجمال في حكمة أو في قلب امرأة أو في زهرة، ولكني سأجد لحظة الجمال الكامل مثل تلك اللحظة.. ستتكرر هذه اللحظة يا مولاتي.. وسيتكرر قبحي إلى أن يستحيل جمالًا.
خرج الرجل من القصر وقد دمعت الملكة عطفًا عليه، ولكن ما أثار استغراب الملكة أن الرجل قد اختفى تمامًا، حتى إنه ترك الكهف ولم يجده أحد أبدًا.. تُرى أين اختفى هذا الرجل؟ كان هذا هو السؤال الذي انتشر بين سكان المملكة.

مرت سنوات طويلة ومرضت الملكة مرضًا شديدًا، وقبل أن تفارق الحياة أوصت زوجها وصية وطالبته بتحقيقها.. لقد أوصته أن يعطي مقتنياتها إلى الرجل القبيح الذي كانت تشفق على حاله.. وبعد أن فارقت الحياة ضرب الحزن واليأس قلب الملك، لكنه حاول قدر الإمكان تنفيذ وصية زوجته الحبيبة فبحث في عرض البلاد وطولها عن الرجل القبيح حتى وجده في كهف آخر في آخر المملكة. عرف القبيح بالخبر فبكى بكاءً شديدًا حتى قالوا إنه من شدة قبحه قد عوى مثل الذئاب وأخذ نصيبه من إرث الملكة الذي كان ذهبًا وكنزًا يكفيه العمر كله ويجعله من أغنى الأغنياء ولكنه لن يجعله الأجمل.

بنى القبيح بهذه الأموال قصرًا كبيرًا فوق هضبة عالية بدلًا من كهفه وكان يقيم مسابقة جمال كل عام يقيّم فيها الأجمل من نساء المملكة ويغدق عليها الأموال، لكنه لاحظ أن امرأة ما كانت تأتي كل سنة وتنظر من خلف أسوار القصر وتفر هاربة إذا اقترب منها.. وفي إحدى المرات أمسك بها الحراس وقال لها القبيح: من أنتِ؟ وماذا تريدين؟

قال أحد الحراس: إنها امرأة مجنونة يا سيدي، تأتي كل عام وتسأل سؤالها: هل ما زال القبيح بنفس قبحه؟ إنها تهرب في كل مرة يا مولاي حينما نقترب منها، ولكن استطعنا أن نمسكها هذه المرة لتنال عقابها.

نظر إليها القبيح في تعجب وقال لنفسه: هل ما زال القبيح بنفس قبحه؟! إن التاريخ يعيد نفسه.. لقد ذكرتني بنفسي حينما كنت أسأل: هل ما زالت الملكة بنفس جمالها؟ لقد كنت أحصل من جمال الملكة على أمل أتغلب به على قبحي ودمامتي، فماذا تريد هذه من قبحي؟

قالت: اتركوني.. يدي تؤلمني.. قل لهم يا سيدي أن يتركوني.. أرجوك.. ارحمني أيها الرجل.

قال: اتركوها.. تعالي معي.

دخلا معًا إلى القصر المليء بشتى أنواع الطيور والجميلات.. كان القصر نفحة جمالية إلهية خالصة.. ووجدت مكتبة ضخمة كلها كتب عن نفس الموضوع (الجمال).

قالت: كل هذه الكتب عن الجمال؟ ما أضخم تلك المكتبة!

قال: أجد فيها عزائي.. ولكنك لم تجيبي عن سؤالي.. ماذا تريدين مني؟

قالت: ربما ستغضب سيدي إن حدثتك بصراحة.

قال: بالعكس، إن حاولتِ الكذب سأترك الحراس يذهبون بكِ إلى القاضي.

قالت: حكايتي أني امرأة قبيحة ينفر منها الرجال.. فكنت أعرف - ولا تغضب مني - أنك كما يقولون أقبح من في المدينة، فكنت آتي إلى هنا لأجد في وجهك عزائي وأعرف أني قد أكون أقبح النساء

ولكني لست أقبح مَن في المملكة.

صفق الرجل بحرارة والسعادة تغمر وجهه وكأنه قد وجد ضالته المنشودة في كلامها وسط ذهول المرأة التي فوجئت بسعادته على الرغم من أنها تتحدث عن قبحه.

قال الرجل: اذهبي الآن ولكِ مني خمسة صناديق من الذهب الخالص أيتها المرأة.

فرح الرجل فرحًا شديدًا ونظر إلى مكتبته وقال: كل هذه الكتب تتحدث عن الجمال ولكنها لم تحدثني عن حكمته.. حكمة الجمال والقبح في هذا العالم.

وأمسك ورقة وقلمًا وكتب آخر كلماته التي أصبحت بعد ذلك على جدران القصر:

حكمة الجمال والقبح: الجمال قال للقبح: سأجعل منك عزاء للبعض، وقال القبح للجمال: سأجعل منك أملًا وأمنية للبعض.

فقال الجمال: ولكنك لا تملك مثل ملكي.

قال القبح: أنا شريكك في ملك الله، خلقنا الله لكي نعطي الأمل.. الجمال أمل والقبح في عزائه أمل.. الحياة بقبحها وجمالها أمل، وهذا هو الجمال الحقيقي وهذا هو معدنه.

وقالوا إن الرجل مات وفي أحضانه كتاب آخر عن الجمال.. وقالوا إن المرأة تزوجت برجل يقاربها في القبح.. وإنها بكت بكاءً شديدًا على فراق القبيح.. حينما فقدت عزاءها في قبحه.

ولكن أعجب ما قالوه: إن الملك قد أمر بدفنه بجوار زوجته.. لعلها تكون حكمة الجمال والقبح التي وجدها على جدران قصره أن يتقابلا في النهاية ويتحدا ولو تحت تراب المملكة»!

كتب لي «حسام» هذه القصة أيام الجامعة.. أهداها لي وقرأتها معه وبكيت واحتضنته ومن يومها وهي لا تفارقني أبدًا.. إنها محاولة لطمأنتي من صديقي العزيز.. إنه يقول لي ألَّا أحزن أبدًا على قبحي.. أصبحت القصة دائمًا في محفظتي كتميمة حظي.

أقرؤها كل مساء، خصوصًا بعد أن أنظر إلى المرآة وأرى تشوهي الواضح وحسرتي المعتادة..

كم أشكر «حسام» الذي أنقذني بما كتبه لي.. على الرغم مِن أني مَن علمه الكتابة قديمًا، إلا أنه أعطاني أغلى قصة في حياتي.. لقد تفوق التلميذ على معلمه.

«يارا»

كنت أتصفح ألبومات الصور لدفعتنا أيام الجامعة.. أحب أن أعيش أحيانًا مع الذكريات؛ فهي طريقنا للهروب من دوامات ووجع الواقع.. كل أصدقائي لهم صور.. إلا «المسخ».. لقد افتقدته وافتقدت أيامه، على الرغم من أني أحدثه أحيانًا ولكن هاتفيًّا فقط، وكانت مرة واحدة منذ أكثر من شهر.. كنت أنا بمثابة ناقلة الأخبار إليه وكنت بمثابة عينيه اللتين يرى بهما.. في البداية اعتقدت أنه يحب «مريم»، لكنه أكَّد لي أنه لا يفكر فيها على الرغم من أنه دائمًا ما يظهر عليه اهتمامه الزائد كلما تحدثت عنها أو جاءت سيرتها في أي مكان.

مسكينة «مريم».. قتلوا زوجها المستقبلي محمد البحيري.. إنها في حالة يُرثى لها.. يكاد الشك يقتلني، ولكن مستحيل أن يكون المسخ له دور في هذا.. آخر مرة حدثني فيها كان يطمئن على أخبار الدفعة وقلت له في المكالمة: تقريبًا كل الدفعة تزوجت ولم يبقَ غيرك أنت و«مريم»، لكن «مريم» ستتزوج خلال شهر تقريبًا.

شعرت أنه يكاد يحترق على الطرف الآخر فقلت في حيرة: ألو ألو.. هل أنت معي؟

قال في نبرة حزينة، حتى إنني بصعوبة ميَّزت صوته: نعم نعم.. مبروك للجميع.. ولكنها لم تدعُني.

استفضت معه في الحديث عن الفرح.. وقلت له إنه مقتصر على الأهل والأقارب، حتى إنني أخبرته عن مكانه وتفاصيل أكثر ولا أعرف لماذا، ولكنهم دائمًا ما يقولون عني إني «رغاية الدفعة»، والآن أشعر بالذنب والحيرة.. هل من الممكن أن يكون له دور في هذا؟ مستحيل.. إنه لا يستطيع حتى أن يقتل فرخة.

كان دائم النظر إلى الأرض، حتى إنه يكاد يصطدم بنا أحيانًا ونقول له مازحين: احترس من الطريق.. أعطنا إشارة قبل أن تصطدم بنا هكذا.

كان يقابل مزاحنا بنظرة مرعبة ولكن ضاحكة تعوَّدنا عليها.. من لا يعرفه ويعرف مدى طيبته يخاف منه بسرعة.. إنه شخصية غريبة.. أحيانًا تشعر بطيبته وأحيانًا تشعر بأنه سيلكمك وعرقه النافر في وجهه يكاد ينفجر.. لكننا تعوَّدنا عليه، حتى إننا كنا نرفض تسميته «المسخ».. هذا الاسم الذي أطلقه عليه محمد البحيري وانتشر بيننا في الدفعة كانتشار النار في الهشيم، حتى إننا تعودنا عليه مع أننا أقرب أصدقائه.

لقد قسم «المسخ» الدفعة إلى نصفين: نصف معه ونصف مع «البحيري»، عدوه اللدود من دون سبب.. لقد كانا دائمًا يتشاجران؛ فـ«البحيري» له شخصية مسيطرة من النوع الذي قد تراه في أفلام مدارس الثانوي الأمريكية، الذي يحب دائمًا أن تكون له السيطرة في عالمه الخاص وبين زملائه.. يحب نفسه بجنون.. يحب أن يرافق

أجمل بنات الدفعة وهو وسيم جدًّا، وتقريبًا في كل شيء عكس «المسخ».
أذكر يوم أن تشاجرا ولكمه المسخ لكمة في وجهه بسبب قصة قطعة الشوكولاتة الشهيرة، حتى إني عندما رويت القصة لأحد زملائنا الذين لم يشاهدوا الواقعة قال فاغرًا فاه: المسخ ضرب «البحيري»؟ لا أحد يصدق هذه القصة؛ فهي كالأساطير حتى الآن لا يصدقها إلا من رآها فقط.. المسخ شخصيته لا تستطيع أن تحددها.. هل هو الذي ينزوي في أحد أركان الجامعة وحده، أم هذا الذي يلكم «البحيري» ويضحك بهيستيريا؟ ولكن من الواضح أنه اختزن عشرات الإهانات من «البحيري» فأخرجها بلكمة واحدة أطاحت به.
لا أستطيع أن أقول لـ«مريم» إن المسخ كان يعرف بشأن الفرح.. لا أستطيع أن أظلمه.. إنه كائن مسكين.. لن ألقي عليه ضوء الاتهام في مقتل «البحيري» فقط لأنه عرف قصة الفرح؛ فكثيرون غيره يعرفون بالفعل، وكثيرون غيره يكرهون «البحيري»، بل ربما أكثر منه.
كانت حزينة للغاية؛ لأنه يوم زفافها الذي ضاع، ولكني لم أشعر بمدى الحب الذي بينهم.. لم أشعر يومًا أنها أحبت «البحيري» حقًّا كما كانت تقول، حتى فرحتها أيام إعلان ميعاد الفرح كانت باهتة للغاية، ليست فرحة بنت بيوم بداية حياتها الحقيقية.
لم يتصل بي المسخ من يومها.. أظنه ربما يكون عرف الخبر، ربما يكون حزينًا على «مريم».. إنه دائمًا في صفها في أي قضية منذ أن عرفها في

أيام الجامعة.. من أول يوم رآها كان يدافع عنها، حتى إنه تشاجر من قبلُ، على الرغم من ضعفه وطيبته، من أجل أن أحدهم احتل مكان «مريم» في المدرج وكانت «مريم» تصيح في هذا اليوم: ما معنى هذا الكلام؟ هذا مكاني أنا؟

قال: أنا آسف ولكنه من الآن أصبح مكاني في المدرج.. هههههه.

خرج المسخ فجأة عن السيطرة وقال: احترم نفسك يا هذا.

قال «رؤوف» في عجب: وما هذا البلياتشو؟ هل هذا المحامي الخاص بك؟

قال المسخ: نعم أنا البلياتشو.. ولكنها ستجلس مكانها وأنت ستقوم الآن.

لم يصدِّق يومها «رؤوف» ما يسمعه وانهال عليه المسخ باللكمات وأحيل للتحقيق مع الإدارة.

كنت أشفق عليه لأنه كان في حالة يُرثى لها فعلًا.. لقد كان في البداية ذا هيئة مقبولة حتى تحوَّل فجأة إلى هيئته الحالية.. لقد كانت الحياة قاسية معه وهو لا يستحق.

«من يضحِّي بضميره من أجل أحلامه كمن يحرق صورة جميلة من أجل الرماد».

مثل صيني

«من يخف الذئاب لا يذهب إلى الغاب».

مثل روسي

«سالم توفيق»

كوابيس لا تنقطع.. لا أعرف حتى أحيانًا الفرق بين الكابوس والحقيقة.. لقد وصلت إلى الدرك الأسفل من الانحطاط إن كان له درك أسفل.

صورة محمد «البحيري» لا تنقطع عن ذهني.. إنه في كل مكان.. شعرت بالعطش في أحد كوابيسي فرأيت «البحيري» يهدئني وهو يقدم لي كوبًا دافئًا من الدم!!

«رائد» الذي كان سببًا في انقطاع أختي عن الدعارة الرسمية وامتهانها الدعارة الخاصة، وهو أخف الضررين في عُرف إنسان قد جعله الزمن أضحوكة مثلي، الآن يجعلني أقتل.. هل ألوم الشيطان أم الرغبة؟ الشيطان لا يستغل الضعف فينا، بل إن ضعفنا نفسه هو الشيطان الأكبر.

قرأت قديمًا عندما كنت إنسانًا حقيقيًّا قبل أن أصبح مجرمًا الآن أن همينجواي قال في رواية العجوز والبحر: «الإنسان يمكن هزيمته ولا يمكن قهره»، لكنه انتحر.. ياللكوميديا السوداء.. ما الذي هزمك وقهرك يا همينجواي؟ بل إن أحد رواد التنمية البشرية انتحر أيضًا!!

لا أرى في كتب التنمية البشرية أي فائدة في حالتي؛ فمن غرس الزمن خنجره في صدره لن تفيده أغنية أمل أخيرة، اللهم إلا إن زادت شقاءه.

تحوَّلتُ لقاتل ولن أتهم أحدًا.. أنا المجرم يا سادة.. إن وقفت أمام محكمة سأقولها بأعلى صوتي: أنا المجرم.. لن أتهم ضميري ولن أتهم المجتمع ولن أتهم «رائد»، ولكن سألوم نفسي الآن وبكل قوة.. أحتاج لصفعة قوية تُخرج مني الخطايا كشظايا البلّور، بل أريدها أن تجرحني وهي تخرج مني.

ولكن طالما انغمست في الجنون فلن يضرني قبلته الأخيرة.. على الأقل أخرج بالمال، ربما أستطيع أن أعيد أختي إلى شرفها مرة أخرى.. ههههه.. ياللكوميديا. أعيدها لشرفها أو أعيد شرفها إليها.. وكيف يكون هذا؟ لعلي أهذي الآن بسبب كثرة الكوابيس.

الآن ميعاد مقابلتي مع «رائد» في قهوة «الخان» بوسط البلد.. الجريمة تمت بسلاسة وخطة محكمة.. جريمة لا يمكن توقعها من طرف ليس له أي خصومة مع المجني عليه.. ولماذا يشك فيَّ أحدٌ أصلًا؟ أنا في مجتمع «البحيري» غير موجود وليس لي كيان.. أنا طرف خفي في المعادلة.. كانت كل مخاوفي أن يراني أحد في العمارة.. هذا هو الخطأ الوحيد المحتمل.. لم يرتكب «رائد» الجريمة لأنه يخاف أولًا - كما يزعم - على الرغم من أنه كما الشياطين ولأن وجهه مألوف إن رآه أحد سيستطيع أن يصفه بسهولة؛ فوجهه لا يُنسى.

وجهي من النوع المصري الذي لن تستطيع أن تميِّزه من وسط آلاف غيره، بل قل ملايين.. خمري البشرة دقيق الأنف أصلع الرأس إلى حد ما، ذو جسد معتدل ليس بالطويل ولا بالقصير.. مصري حتى

النخاع!
وجدت «رائد» في الموعد.. لقاء لا يشك فيه أي إنسان.. أنا أصلًا ليس لي تاريخ مع الجرائم و«رائد» إن رأيته ستعطف عليه بسهولة أو ربما تخاف منه، ولكن لن تشك فيه.
وجدته يتناول فنجانًا من القهوة كعادته.. لقد عرفت أنه مدمن للقهوة وقال لي إن القهوة مفتاح النهار وإنها جملة محمود درويش، بل إنه حدَّثني مرة عن القهوة والحضارة وذكر مصادره.. إنه مختل كليًّا ولا أبالي أحيانًا بكلامه، على الرغم من أنه قد يظهر أنه حكيم وهكذا تراه أختي، ولكن ربما لأنها تكون بين أحضانه.. إنها عاشقة حتى الثمالة.. لا أعلم من الذي يحب مسخًا؟ ما هذا الجنون المحيط بي من كل جانب يا ربي؟ إن أختي تحب مسخًا وأنا قتلت من أجل مسخ.. المال يستطيع أن يشتري أبعد مما نراه ويصنع أصعب مما نستطيع أن نتخيله.
جلست إلى جواره وقال في حماس وهو يخرج باقي المبلغ: مبروك.
قلت في أسى ظهر في صوتي: لقد أصبحت مجرمًا ومرخصًا.
قال هازئًا: مجرم؟ هذه المصطلحات التي يخترعها المجتمع.. لماذا لا تقول منقذًا؟
من يقتلون في الحروب مجرمون أم يدافعون عن قضية؟
قلت وأنا أنظر إليه شزرًا: قضية؟ طبعًا قضية.. إنك تخترع ما تريد لتريح ضميرك بحرية.

قال وهو يرفع إصبعه في وجهي: آه.. الحرية.. هذا ما أبحث عنه.. أنت تأخذ حق الحرية.. حريتي في حب «مريم».

- والله أنا متعجب أنك تعرف كيف تحب.. اعذرني.

- طبعًا بسبب مظهري.. أليس كذلك؟ لماذا تنظرون إلى الناس وتحكمون عليهم من مظهرهم؟ لماذا لا تحكمون على جمالهم الحقيقي بداخلهم؟

بالتأكيد سمعت عن كونفوشيوس.. هل تعرف ماذا قال؟ كان يقول: «كل شيء له جماله ولكن ليس كل أحد يستطيع أن يبصره»، حتى هتلر كان يحب وهيتشكوك المرعب كان يحب ونابليون كان يحب، على الرغم من قوته وجبروته في المعارك.. المهم جمالك الداخلي.

- وأين جمالك الداخلي وأنت تحرض على القتل؟

- أنا لم أقتل.. أنا أشرت إلى بذرة شر في المجتمع وأنت انتزعتها.

- أنت تتلاعب بكل شيء.. أخشى أن يكون هذا الرجل الذي قتلته غير ما تصوره على أنه شيطان.

قال ضاحكًا: أنت لا تعرف «محمد البحيري».. لا تعرفه أبدًا.

- أنت من فترة لا ترد على «سارة».. ما الذي حدث؟

- احذر أن تعرف أي شيء عمَّا تم بيننا.

- لا، أنا لن ألوث صورتي أمامها أكثر من هذا.. أنا لا أطيق حتى أن أنظر إلى وجهي.

قال في حزن لم أتخيله وهو يتنهد: تخيل أن هناك إنسانًا يعيش كل

حياته لا يطيق النظر إلى وجهه.
فلنرحل الآن وقل لـ«سارة» إني سأتصل بها قريبًا.
- ما زلت في كتابتك؟ «سارة» تقول لي إنك تتركها وتكتب طوال الوقت.. وما حكاية هذا الصندوق الذي رأته منذ فترة؟
قال في غضب كأنه تنين ينفث ناره: ليس لك شأن أنت وأختك بهذا الصندوق.. ابتعدا عنه.. هل تفهمني؟
أخذت المال وتركت المكان وتعهدت أن أتوب عمَّا أفعله.. أليس الله بقابل التوبة؟ سأحاول أن أعود إنسانًا من جديد.. سأحاول.. ثم شعرت بمدى تناقض ما أقول وأنا أمسك بالفعل «فلوس حرام»!! متناقض كبعض مدعي الفضيلة وهم أبعد ما يكونون عنها.. «سارة» حكت لي عن بعض كبار القوم وهو يستخدمون معها أقذر الأساليب وأحطها، حتى إنها كانت تشاهدهم بعدها في التليفزيون وتبصق عليهم!
لم أعد أعرف في هذا الزمان من هو المسخ الحقيقي.. من يبدو كمسخ أم من يخفي مسخه الداخلي!!

«رائد الألفي»

سيبقى الحب هو هزيمتنا الوحيدة التي نرفع لها رايات النصر.. إنه نصرنا المهزوم أو هزيمتنا المنتصرة..

كيف أتغيَّر يا «مريم».. لا أستطيع أن أصبح أجمل.. فهل تستطيعين أن تضحي وتتغيري من أجلي؟ لا يمكن أيضًا..

التغيير.. إنها الكلمة السحرية في الحب.. أن تتغير من أجلها أو تتغير هي من أجلك أو تعشق في النهاية الاختلاف بينكما.. فالحب يأتي ليغيِّرنا جميعًا، ليس من أجل أن يغيِّر أحدنا الآخر.

كانت علاقتنا جيدة، لكن العلاقات هي الخريطة، أما الحب فهو الكنز الحقيقي.. أحيانًا تجد الخريطة ولا تجد الكنز وأحيانًا تجد الكنز بالصدفة وأحيانًا يأتي دور القراصنة ليغيروا كل شيء.. نعم إني أعرف جيدًا أن «محمد البحيري» هو القرصان الذي حاول دائمًا سرقة كنزي.. بل إنهم جميعًا قراصنة.. «محمد البحيري» و«أسامة الرفاعي».. الكل حاول سرقة كنزي، ولكني انتصرت عليهم في النهاية.

لا تخافي مني يا جميلتي.. لا أعرف كيف أطلب منك ذلك على الرغم من أن الخوف صديق الإنسان الدائم.. بعض الناس أصدقاء خوفهم في بحثهم عن المستقبل.. والبعض أصدقاء مراسلة لخوفهم في بحثهم عن السعادة.. والبعض هو الصديق الوفي لخوفه في بحثه عن الحب.. الحب يا «مريم» الذي ما عشت يومًا من دونه.

لا أعرف إلى متى سأهرب من «سارة».. إنها تقول إنها حامل وإنها تريد أن تراني للأهمية.. في آخر اتصال بيننا كانت منهارة وهي تقول في أسف: هل هذا جزائي يا «رائد» بعد كل ما عشته معك؟ منذ أن قلت لك إني حامل وأنت لا ترد عليَّ وتقول إنك عند صديقك «حسام».. وأنا أعرف أنك بالداخل وأسمع صوتك أيضًا ولا تفتح الباب.

- أنا لا أهرب ولكني مشغول مع «حسام» في أمور مهمة جدًّا.

- حتى إنك لا تريد الاطمئنان على ابنك القادم؟

قلت في همس كفحيح الثعبان: أجهضيه.. لا نريده يا «سارة».. هذا أفضل لنا.

أعرف أنها غاضبة مني وأنها مصدومة ولكن لا أستطيع أن أُرزق بطفل يرى أباه بهذه الهيئة.. أظنه سيبكي مرة عند ولادته ومرات عند رؤيتي.. لا أستطيع أن أسبب الفزع حتى لابني كما سببته لأصدقائي.. لا أريد أطفالًا يا «سارة».

المرأة كما ممثل المسرح، عندما تنحني فهذا لا يعني بالضرورة أنها مخلصة، بل ربما تنحني لأنها قامت بدورها ببراعة.

لا تنقصني الآن سوى مشاكل الأطفال أيضًا.. أشعر بالخوف لجريمة ارتكبتها على الرغم من أنها من حقي وأشعر بالغضب من امرأة تريد أن تحبني حتى لو كنت لا أبادلها نفس الشعور، والآن أطفال أيضًا يدخلون لدائرة مشاكلي التي لا تنتهي.

«سارة» هي الوحيدة التي دخلت إلى نفسي وعرفتني على حقيقتي.. أنا نفسي مَن أطالب الناس بأن يعرفوا الحقيقة أولًا أقع أحيانًا في الفخ وأحكم على الناس من مظهرهم وكلامهم.. حدث لي مرة هذا الموقف في إحدى العربات وكان السائق ينظر إلى صور تعرضها امرأة بجانبه عليه.. تعجبت في البداية.. قال السائق في نبرة حاسمة: حقه يضربها ويطلع عينيها كمان، دي مراته.. أُمال إيه؟!

ظننته شريرًا أحد الحمقى الذين يعتبرون المرأة كما الكرسي في المنزل ومن حقك أن تضعها أينما تشاء دون مناقشة.. غضبت غضبًا عارمًا وكدت أصرخ فيه فقال مرة ثانية: هذا ابنهما.. بسم الله ما شاء الله.

كان هناك شاب يافع يجلس خلفي، إنه ابن هذه المرأة وكان غاضبًا لأن أمه تتكلم مع السائق.. أصبحت لا أفهم المشكلة.. وظننت أن السائق إنسان يستحق أن تنزل عليه لعنات الله وأن الشاب محق.. وأن هذا السائق من الذين لا يحترمون النساء.. في النهاية وياللعجب عرفت وفهمت القصة كاملة.. إن هذه المرأة أخته وكان يتحدث عن ابنته ويقول: إنها تستحق الضرب.

وتستحق الضرب ممن؟ من ابن أخيه.. أخيه الذي قطع علاقته به وجعله سائقًا وحرمه من ميراثه، وعلى الرغم من أن هذا السائق يدافع عن ابن أخيه ويقول إن من حقه أن يضرب ابنته، تقول أخته وهي دامعة: حقك علينا يا «رشاد».. سنظل دائمًا إخوة.

تعلَّمت من يومها ألَّا أحكم أبدًا من الظاهر أمامي، بل أن أعرف القصة كاملة.. لا بد أن تنتهي القصة حتى أستطيع أن أضع حكمي. منذ أن عرفت خبر حمل «سارة» وتوبة «سالم» وأنه يود تسليم نفسه، اقتنعت تمامًا أن الحياة مثل لعبة الويجا وعليك أن تحترس من كل حركة وكل خطوة تخطوها.. عليك أن تعرف عواقب كل ما تفعله أولًا.

«سالم» مجنون كليًّا وكان لا بد ألا أثق فيه منذ البداية.. إنه ضعيف ويذكِّرني بنفسي في البداية.. ولكني اعتقدت أن حبه للمال سيجعله طوع يدي، لكنه الآن يريد أن يضعنا خلف القضبان بسبب غبائه وتوبته المزعومة.. حدثني منذ فترة وقال: «رائد».. أنا لم أعد أتحمل.. لا أستطيع أن أنام.. مال حرام.. حياة حرام.. ابن أختي حرام.. أنا قررت التوبة.. سأتوب.. والآن.

بعدها بفترة كلمني بصوت مليء بالأسى وقال: سأسلم نفسي للشرطة.

- ماذا تقول؟

- رأيت النبي في المنام وقال لي أن أتوب.

قلت في حدة: كفاك خرافات.. هل سيظهر النبي لقاتل مثلك؟

قال في إصرار: ولأني قاتل حان الوقت أن أكفر عن ذنوبي.

- اهدأ ودعنا نتفاهم.. الموضوع لا يتحمل.. فكر في أختك وطفلها القادم.. سنكون أهلًا.

- أنا لم أقُل شيئًا لـ«سارة» ولكنها ستعرف في النهاية.. وستعرف أنك لا تستحق حبها لأنك مجرم.

- قابلني على نفس القهوة غدًا ودعنا نتناقش بالعقل.. الأمور لا تسير هكذا.

هرعت بسرعة إلى منزل «حسام» ورأيت جاره الصحفي المجنون الذي نظر إليَّ باستغراب وقال وكأنه يعرفني: لماذا أنت متعجل؟

- عليَّ القيام بعدة أمور وجئت لأخذ بعض الأشياء.

«حسام الراوي»

أتقول لي أن أقتل؟ أنا أقتل يا «رائد»؟ هل أصبحت الجريمة في دمك؟ وكل جرائمك تريد أن تنفذها على حساب الآخرين؟

تعجبت من طلبه وإصراره على القتل باستمرار.. لقد حوَّله حبه لـ«مريم» إلى مختل كامل يقتل حبًّا في القتل.. إنه يرى في الجريمة ملاذًا له، تعويضًا عن ضعفه أمام «مريم» فقط.. لقد مل دور الضعيف أمام حبها على الرغم من أنه قوي أمام غيرها.

قال وهو يشعل سيجارة: ولِمَ لا يا «حسام».. أنا أثق بك وأنت لن تخذلني.

قلت في ذهول: وتدخن أيضًا؟ لا تقُل لي إن في حياتك نساء كثيرة أيضًا.

رد في ثقة: وهي حامل أيضًا مني، واسمها «سارة».. لقد جئت إليك لأتخلص من أخيها.

صحت وأنا لا أتمالك نفسي: أخوها؟ أخوها هو من نفَّذ الجريمة؟

قال في برود شخص متمرس على الجريمة: نعم أخوها.. لقد جُنَّ جنونه ويتحدث عن التوبة هذا السافل.

- ولكنه قتل لك «البحيري».

- نعم.. أما الآن فقد يكون وسيلة إعدامي.. الغاية تبرر الوسيلة يا «حسام».

- أنت شيطان.

- الناس تتغير يا صديقي.

- اخرج من حياتي يا أخي.. سأحرق لك هذا الصندوق أيضًا لتغادر من هنا.. لا أريد أن أعرفك.

أشعلت النار لمحاولة إحراق الصندوق وفوجئت بصرخة غير عادية، حتى إنها أثارت فضول جاري الذي تعوَّدت منه على دس أنفه في حياتي ومجرياتها.

لقد تشاجرنا لقرابة نصف الساعة.. لكمات متتالية.. حتى العضّ استخدمناه.. لقد فعل كل شيء في استطاعته لمحاولة إبعادي عن الصندوق واحتضنه بقوة وبكى.. لقد كان يعشق هذا الصندوق أكثر من نفسه.. لا أفهم ما الذي يفعله.. جلسنا على الأرض منهكين لمدة عشر دقائق ينظر أحدنا إلى الآخر في ذهول.. أنا لا أصدق أنه «رائد».. «مريم» هي السبب.. نعم هي من سببت هذه القوة المطلقة بسبب ما يقول إنه «الحب المطلق».. إنه الآن وصل إلى الشر المطلق.

قال لي فجأة: قُم وافتح الباب لجارك.. هذا الكلب ذو الأنف الصحفية.. لقد سمع صوتنا.

فتحت الباب ووجدت جاري يدخل ويسأل: ما الذي حدث يا «حسام»؟ ما هذه الأصوات؟ أغلقت باب الغرفة وداريت الصندوق بإحدى الملاءات وقلت: لا يوجد شيء.. ما الذي يجعلك مستيقظًا

إلى الآن؟ لديك جريدة وعمل في الصباح.
قال: أحببت أن أطمئن عليك.. هل تنزف؟
قلت في تأفف: حادثة بسيطة.. لا تشغل بالك.
قال في غضب: ما الحكاية يا «حسام»؟ لقد كنت أجلس معك وتحكي لي مشاكلك، فما الذي حدث؟ منذ أن ظهر صديقك هذا وأنت لا تعيرني اهتمامك ولا تريد حتى أن أراه وكأنه مجرم هارب من العدالة.. ما الذي يحدث؟
- نعم أفهمك.. أنت كل ما تهتم به قصة مجرم وصحافة.. أنت لا تريد الاطمئنان ولكنك تريد الوصول لشيء ما.
- صدقني لا أقصد، لكنك تغيرت يا «حسام».. حتى هذه المرأة التي تأتي لك هنا سمعتها وهي تقول «رائد».. هل تعرف هي أيضًا «رائد» وأنا لا؟ لقد عرفتك قبلها يا «حسام».. لماذا لا تعرفني على صديقك كما وعدتني؟
- في وقت آخر.. ليس الآن.. اتركني أرجوك.. أنا آسف.
عدت مرة أخرى لـ«رائد» في الغرفة ووجدته يغلق الصندوق بعد أن كان يضع شيئًا في داخله.. وأغلقه بالقفل مرة ثانية.
قال مرة أخرى وهو يبتسم في مكر واضح: هاه؟ موافق على عرضي؟
- تريدني أن أقتل شخصًا يقدم على التوبة؟
- توبة؟ هههههه.. هل صدقت أنه سيتوب؟ إنه مثل تجار الدين تمامًا، يريد أن يتكسب منه الآن كما تكسَّب من كل شيء.. لعبة

حياة وموت وتأثير على ناس وعقولهم.. إنه مجرم عبد للمال ويريد أن يبتزني بقصته هذه.

- ألم تقُل إنك تثق به؟

- وهذه نتيجة الثقة.

- ألن تراعي شعور أخته أو أمه المريضة؟

- لا تقلق.. كل شيء معد سابقًا.

قلت في قلق: هل ستقتلهما أيضًا؟

قال هازئًا: لا بالطبع، هذه السيدة العجوز ستموت وحدها.. إنها تصارع الموت منذ زمن.

- وإن قلت لك لن أقتل يا «رائد».

- تكون قد حكمت عليَّ بالموت يا «حسام».. لم يكن هذا عشمي فيك.

- عشم؟ أنت تتحدث عن القتل!

- اعتبر نفسك تنتقم من أجل «البحيري».

قلت بصوت أجش: «البحيري»؟ أنا أنتقم لـ«البحيري»؟ فليذهب إلى قاع الجحيم.

- سأجعلك تقتله بنفس الطريقة.. سأجعله يركب بجواري وتقتله برابطة العنق من الخلف. هذا قصاص عادل «ولكم في القصاص حياة».

- أتقرأ القرآن أيها المجرم؟ ستتاجر أنت أيضًا بالدين مثله؟

- هل ستنفذ أم لا؟ اعتبرها خدمة العمر واطلب مني أي شيء.

«سالم توفيق»

التوبة.. قررت التوبة.. البعض يظن أني فعلًا سأتوب فجأة.. ولكني أدمنت الجريمة، والآن جاء دور الابتزاز.. إن الصفات السيئة إن لم تتحكم بها تتكاثر وتبدأ في نشر نسلها الشيطاني داخلك بشكل مفزع.

لقد قرأت ذات مرة قصة عن ليوناردو دافنشي تعبِّر عن الخير والشر داخل كل منا:

«عندما فكر ليوناردو دافنشي برسم لوحة العشاء الأخير، اصطدم بصعوبة كبيرة، فيجب أن يرسم الخير من خلال صورة سيدنا عيسى والشر متجسدًا في يهوذا.. وذات يوم، بينما كان يستمع إلى حفلة موسيقية، لمح في وجه أحد المنشدين الصورة الكاملة للمسيح، فدعاه إلى مرسمه حيث جعله موديل وقام بالكثير من الدراسات والمخططات.

بعد ثلاث سنوات، كانت اللوحة قد أصبحت مُنجَزة تقريبًا، لكن ليوناردو لم يكن قد وجد بعد النموذج المناسب ليهوذا.. وبعد أيام من البحث اهتدى الرسام إلى شاب يرتدي أسمالًا مرتميًا في مجرى ما فطلب من مساعديه أن ينقلوه مباشرة إلى الكنيسة فإنه لم يعد يملك الوقت ليقوم برسوم إعدادية، ولدى بلوغهم الكنيسة جعل المساعدون الشاب في وضعية الواقف ولم يكن الشاب يدرك ما

يحدث له.. وهكذا استطاع ليوناردو نسخ سمات الكفر والخطيئة والأنانية النافرة بقوة على ذلك الوجه.

وعندما أنجز الرسام اللوحة فتح المتشرد عينيه وصاح بصوت مشوه حزين:

- سبق لي أن شاهدت هذه اللوحة.

سأله ليوناردو دافنشي مندهشًا: متى؟

قال الرجل: منذ ثلاث سنوات، قبل أن أفقد كل ما لديَّ.. في ذلك الوقت كنت منشدًا ودعاني رسام لأكون موديل لكي يرسم وجه المسيح»!!

إنه الخير والشر.. عندما يتجسدان في نفس الإنسان.. عندما قاموا بأبحاث عن عائلة ديستويفسكي وجدوا الكثير من العجائب؛ فالعائلة مليئة بالمجرمين والقديسين أيضًا، حتى إن من أقاربه من قتلت زوجها بالسم.

أنا لم أعد أعرف كيف أتوب.. تمكَّن مني الشر تمامًا.. اليوم قد أنفقت معظم ما أعطاه لي «رائد» وحان وقت الابتزاز باسم التوبة.. أنا آسف يا «رائد»، لكن الغاية تبرر الوسيلة.. ولا مانع أن أبتزك وأنت محرِّض على القتل.

ذهبنا إلى مكان سري في هذا الوقت من الليل.. القمر كامل الليلة ولكن تحجب السحب الهائمة رؤيته إلى حد ما، والجو بارد، لكنه اختار هذا الموعد ليكون فيه لقاؤنا وقال لي عندما قابلني: اركب

السيارة.

قلت له: أين سنذهب؟ إلى القهوة؟

- اركب السيارة.

- حسنًا.. فلنرَ.

- هل قلتَ شيئًا لـ«سارة»؟

- «سارة» لا تعرف أي شيء ولكنها ستعرف.. لقد قررت التوبة.

- دعك من قصة التوبة هذه وقل لي كم تريد.

- أستغفر الله يا أخي.. أتظن فيَّ هذا؟ أتظنها مسرحية؟

قال في سخرية: أنت أكبر ممثل.

- ما دام الحديث أصبح صريحًا.. أريد نفس المبلغ السابق.

قال متعجبًا: وأنفقت كل هذا المال! كيف؟

- الكيف يا صديقي.

- الكيف؟ فعلًا كل شيء يجر بعضه.

- المهم أني مفلس جدًّا.

- وأنا ليس معي هذا المبلغ الآن.. هل تظنني مليونيرًا؟

أنا فقط أعيش حياة متوسطة معك أنت وأختك، ولكن لو كنت مليونيرًا كنت سأذهب في عرض البلاد أبحث عن حل لوجهي أو علاج إذا كان يوجد حل أصلًا.

- ألم تقُل لا يوجد أمل؟

- قالوا لي هذا، ولكني لا أصدق.. أقنع نفسي أنهم كاذبون وسأجد

الحل يومًا ما.

- أدعو الله أن تجد الحل.

قال وهو يبطئ حركة السيارة في أحد الطرق الصحراوية: سأنزل هنا لأرى العجلات.. إنها تصدر صوتًا.

قلت مبتسمًا: شكلك غريب بهذه البدلة ورابطة العنق.. دعني أرَ العجلات معك.

قال مقاطعًا: لا.. أنا أعرف ما سأفعله.

- كما تحب.

سمعته يتحدث ويقول بصوت خافت: هذه «بروفة».. ولننفذ غدًا.

ما الذي تخطط له يا «رائد»؟

«سارة»

قال لي «رائد» في أحد لقاءاتنا: إن الحياة كشجرة، البعض يحاول طوال عمره أن يتسلقها ليصل إلى الفاكهة.. والبعض يقع من أعلى فروعها.. والبعض يجلس فقط عليها ليستمتع بالمنظر في هدوء.. وقال لي إنه من النوع الأخير!

تُوفيت أمي بعد صراع مع المرض ولم يظهر أخي بعدُ.. لقد اختفى فجأة كأن الأرض انشقت وبلعته، كما يقولون، ولم نجد له أثرًا.. وكان آخر ما قاله لي في أحد الأيام التي عاد فيها ملابسه مغطاة بالرمال وشعره أشعث غريب الهيئة: كوني مستيقظة يا «سارة».. احذري منه.. إنه شخصية معقدة.

لكنه الآن أب لطفلي الذي قررت أن أحتفظ به مهما كان رأي «رائد».. أحتاج لأن أشعر بالأمومة؛ فهي أصدق إحساس في هذا العالم..

ذهبت لـ«رائد» أشكو له اختفاء أخي فقال لي في دهشة: ياللعجب.. لا بد من عمل محضر في قسم الشرطة فورًا.. منذ متى وهو مختفٍ؟

- منذ أسبوع تقريبًا، إنه حتى لم يحضر عزاء أمه.. لا نستطيع العثور عليه في أي مكان.

- لا بد أن نبدأ فورًا في البحث، ربما يكون قد أصابه مكروه لا قدر الله.

- هل كنت عند «حسام»؟

قال متلعثمًا: نعم.. آاا.. نعم.. آه آه.. ذهبت وعدت بسرعة.

- ألن تعرِّفني به؟ لا بد أنه صديق مقرَّب لك جدًّا.

- طبعًا «حسام» صديقي جدًّا.. المهم.. البقاء لله في والدتك.

قلت في حسرة: كانت مسكينة.. المرض نهش في عظامها.. لقد ارتاحت من العناء.

- نعم.. الموت فعلًا يكون هو الراحة أحيانًا.

- فعلًا.

قال فجأة وهو ينظر إلى بطني: أنا مقدر الظروف جدًّا، ولكن ماذا عن الطفل؟ هل خططتِ لإجهاضه؟

قلت في غضب: لن يحدث.. سأحتفظ به حتى لو سأرعاه وحدي.. هذه روح إنسان التي تريد قتلها.

- كلام فارغ.. في النهاية اسمه «ابن حرام» كما يقولون.

قلت في حزن: أهذا جزائي يا «رائد»؟ كيف نطقت هذه الكلمة؟ وأنا التي ظننت أنك ستحدثني عن الزواج في يوم ما.

- زواج؟ لقد عشتِ في أحلامك فترة طويلة وصدقتِ أننا سنكمل للنهاية وندخل العش الذهبي وهذه الأحلام العابثة التافهة للفتيات.. ونعيش مع بعض طوال العمر.. كم عامًا ستتحملين يا «سارة»؟ خمسة أعوام؟ لا.. قولي عشرة أعوام مثلًا؟ دعكِ من دور المثالية.. أنا مجرد إنقاذ لك من حياة الشارع وأنتِ لا تحبينني.. لا

أحد يحب «رائد الألفي».

كررها مرة ثانية وهو يدمع ويرتمي على أريكته: لا أحد سيحب «رائد الألفي».

معدوم الثقة تمامًا في نفسه.. إحساسه بالقبح غلب كل إحساس وعاطفة عنده.. الدمامة وصلت إلى روحه بعد أن غطت معالم وجهه.. لا أعرف كيف أُقنعه أني أحبه.. إنه لن يقتنع على الرغم من كل ما عشناه معًا وعلى الرغم من أني قلتها له أكثر من مائة مرة.. إنه لا يريد حتى أن يصدق.

«مريم»

منذ أن فقدت «محمد البحيري»، زوجي المستقبلي، وأنا في حالة يُرثى لها.. لا أستطيع أن أذوق طعم النوم وممتنعة حتى عن الطعام.. لم يكن يساعدني في حالتي سوى صديقتي «يارا» وأبي.

بعد وفاة أمي، منذ زمن بعيد، لم يتزوج أبي.. كان وفيًّا جدًّا لذكرى أمي.. كنت أخاف من أن أحظى بزوجة أب تسيء معاملتي.. كان لصديقتي زوجة أب تسمى «لبنى»، وهي من الأمثلة القليلة على مدى طيبة وبراءة زوجة الأب؛ فالمعتاد دائمًا أن زوجة الأب في الروايات والأفلام متسلطة وقاسية بشكل لا يُحتمل، لكن ربما كانت «لبنى» مثالًا نادرًا.

كانت صديقتي تروي لي أنها دائمًا ما تمشِّط لها شعرها حتى أيام الجامعة وتقول لها: قمر قمر.. غدًا ستجدين ألف عريس على بابك يا جميلة الجميلات.

كانت صديقتي تفرح كأي بنت بتلك الجُملة.. كل بنت ترغب في أن تكون جذابة.. أن يقف على بابها «العرسان» طوابير، كما كانت تقول.

كان بعد ذلك يأتي الدور على «البخور».. إنها تبخرها كأنها ابنتها من لحمها ودمها وتقول لها وهي تذاكر دروسها وهي تدور حول رأسها برائحة البخور الشرقية الجميلة: «الأولة بسم الله والتانية

بسم الله».

وتردد بعض أسماء صديقاتها وتأتي بعروسة من ورق وتمارس دورًا غريبًا عليها، وهي من أبناء طبقة متعلمة، وتعمل «مهندسة».. لا أعرف ما حقيقة هذا البخور وهذه الأفعال العجيبة ولكني قرأت على شبكة الإنترنت عن أصل هذه العادة فوجدت ما يلي:

«كان البخور يُستخدم في الحسد استخدامًا شائعًا في القاهرة، وأشهر أنواع الحسد هو نظرة العين من النساء إلى الأولاد الذكور. وأشهر أنواع البخور هو (الجاوي)، وكان يُستخدم في رقية الغلمان؛ حيث يوضع في مبخرة مشتعلة الفحم، ويعبر عليها الغلام سبع مرات، ويجب أن يخطو برجله اليمنى، وإلا فسدت الرقية. وتقوم السيدة التي تمارس الرقية بطقوس معينة عندما يخطو الغلام فوق المبخرة جيئة وذهابًا، وتردد كلمات موزونة، وهي أصول العمل.. وهذه الكلمات تعتبر من الأدب الشعبي.

ثم تردد أسماء النساء التي تعتقد أن عين واحدة منهن أصابت ولدها، فارتفعت درجة حرارته، أو أصيب بالسعال. وبعد إتمام مراسيم الرقية الأولى، وبعد أن يتم الغلام الخطوات السبع، تقوم أمه، أو السيدة التي ترقيه، بإحضار ورقة على شكل إنسان له رأس.. ثم تخرق عينيه بإبرة الخياطة، وتقول كلمات أخرى في أثناء ذلك.. ثم تمارس الرقية الثانية فتضع قطعة من الشبّة في مجمرة البخور، وحين تتشكل الشبّة في صورة إنسان، تلقي في النار بالورقة التي

خرقت عينيها، وتقول كلمات أخرى. وبذلك تتم عملية رقية الطفل أو الغلام المصاب، وتعتقد أمه أنه سيُشفى بسبب ذلك.

كان الجهل سائدًا.. وكان كثيرون من المحتالين والمحتالات يتدخلون لشفاء المرضى.. أو حل العُقد بين المتخاصمين والمتخاصمات. وفي الجيل الماضي كان طب الرُّكّة ما زال موجودًا في القاهرة. الولد الذي كان يصاب بضربة شمس كانوا يضعون في أذنيه محلول الملح، ويعصبون رأسه بمنديل كبير يوضع في وسطه مفتاح.. ثم يطوون المنديل ببطء عن طريق المفتاح، وبذلك تخرج ضربة الشمس من الرأس.

وكانوا يستخدمون المنوّمات في إنامة الصبي الذي تهتز أعصابه، وذلك عن طريق ثمار الخشخاش التي تغلي في الماء، ثم يشربها الولد وينام. وكانت ثمار الخشخاش تباع في الدكاكين وهي حِزَم صغيرة تضم أربع ثمرات، وثمنها مليم واحد. أما أمراض العيون التي كانت منتشرة بشكل كبير، خاصة الرمد الطبيعي، فقد كان علاجها عندهم مسحوقًا أبيض يُذاب في الماء، واسمه (الششم). وكان أشهر أنواعه: (ششم الديك). ولم يكن يذهب إلى الأطباء إلا أبناء الطبقة القادرة. وفي عصر الدولة المملوكية، ارتفعت مكانة البخور، وكذلك المُبخِّر، وهو الشخص الذي يقوم بمهمة التبخير، واستمرت هذه المكانة حتى العهد العثماني، واستُخدمت المبخرة في مناسبات كثيرة مثل مواكب الزواج، وتبخير الموتى، وتهيئة البيوت لاستقبال الضيوف،

والاحتفالات العائلية وخلال ليالي رمضان وأيام الأعياد.

وللمسيحيين أيضًا علاقة قوية بالبخور، وهو مُستخدَم في الكنائس منذ العهد القديم كطقس من طقوس الصلاة ورمز لصلوات القديسين المرفوعة أمام الله، باعتبار أن الإنسان لا بد من أن يكون ذا رائحة ذكية عندما يقف أمام الله.

كلمة (البخور) عند الصينيين تُعرف باسم (شان شينانج). وقد لعبت الصين، بصفة خاصة، دورًا كبيرًا في انتشار البخور، خاصة ما يُعرف باسم (العود)، في دول العالم كله.

وشجرة البخور (آكيلاريا)، لكل جزء منها عبق خاص وميزة مختلفة، لكنها في مجملها من الجذور والساق والأغصان جميعها له عبق خاص حتى قبل تصنيعه، وتعمر شجرة البخور من خمسين عامًا حتى مائتي عام، وهي شجرة راسخة على امتداد تاريخ النباتات في المناطق التي تنبت فيها.

وثمة شجر بخور مكثّف العبق يُزرع في اليمن والسعودية ومصر وبعض دول الشام غير باردة المناخ، يعمر فقط لمدة خمس سنوات، لا يزيد ارتفاع الشجرة منها على خمسة أمتار، بينما الشجر المعمر يفوق ارتفاعه العشرين مترًا».

هذا ما قرأته على الإنترنت عن هذه العادة الغريبة على الرغم من أنها تُشعرني بأني مميزة جدًّا ولكني أحيانًا أشعر أنها نوع من الخرافات فلا أحب أن أتعلق به وأميل إليه.

كنت أتمنى أن أكون محظوظة مثلها.. فأول من عشقني كان «المسخ».. نعم كنا نطلق عليه هذا الاسم أيام الجامعة.
كان يتقرب إليَّ منذ أن رآني أول مرة، وكنت أشعر بحاجته الشديدة إلى أن يجلس معي، وتقريبا كان لا ينظر في عيون الكثيرين ولكنه أحيانًا ينظر إليَّ، حتى إن «يارا» صديقتي كانت تلاحظ وتقول: غريبة جدًّا.. هل تعلمين أنه لا ينظر لأحد تقريبًا؟ طوال الوقت ينظر للأرض.. ترى ما حكايته يا «مريم»؟
لم أكن أعرف هل هذا سوء حظ أم لا؛ فقلب يحبك بوجه مسخ أفضل من وجه وسيم بقلب مسخ.. فالحب خارج القواعد ولا أستطيع أن أضع له قالبًا معينًا ورجلًا معينًا.
كنت أقول لـ«يارا»: ربما يكون وجهه سرياليًّا.. لن نحكم على الناس أبدًا من المظهر.. قالت لي «يارا» في تعجب: سريالي؟ كان الله في عوننا من أفكارك الغريبة.
كنت أقول إن الحب لوحة سريالية.. لوحة معقدة جدًّا، لكن كيوبيد يحاول أن يجعلها أبسط بفرض اللون الأحمر عليها بدماء آدم وحواء، لكن اللوحة سرعان ما تزداد تعقيدًا وصعوبة!
فالحب ليس حلمًا للوصول إلى كل شيء.. بل هو كل شيء حقيقي يصل بك إلى حلمك.
لم أحكم عليه من المظهر أبدًا.. لا بد أن أجلس معه.. جلست معه أيامًا وشهورًا، كنت صديقته الوحيدة، كنت أحاول أن أهرب به

لشاطئ أمان من ملاحقات ومطاردات «محمد البحيري» الذي كان يحاول أن يتقرب إليَّ أيضًا.. هل يشعر المسخ بالغيرة عليَّ؟ لماذا لا يتعصب أبدًا ولا يتحرك إلا أمام «البحيري» على الرغم من أن الجميع يسخر منه؟ أنا أشك دائمًا في مشاعره نحوي.. ولا أعرف كيف سيكون موقفي منها.. لم أتخيل أن أكون في هذا الموقف وأنا من جميلات الدفعة كما يقول عني الطلبة.

تعوَّدت أن أقول «المسخ».. للأسف الاسم أصبح متداولًا بشكل مريع ومقزز، حتى إني كرهت تعود لساني على نطقه.. لم أكن أناديه باسمه إلا أمامه، لكن حينما أتكلم مع غيره كان دائمًا اسمه «المسخ».. وفقط «المسخ»!

قال لي ذات يوم، وهو يقترب مني بعد خروج الدفعة وجلوسي لكتابة بعض المحاضرات: «مريم».. ألا تريدين أن تعرفي لماذا أصبحت بهذه الهيئة، لماذا أنا بهذا القبح؟

قلت في عطف: غير مهتمة.. صدقني يكفيني طيبة قلبك، أنت أطيب من قابلته وأرقهم على الإطلاق، وهذا يكفيني.. لم أرَك يومًا قبيحًا كما تقول.

قال في أسى: لعنة الله على الأطباء الذين باعوا ضمائرهم وأوصلوني إلى هذا الشكل.. أنا أكرههم.

زاد فضولي وقلت: وماذا فعلوا؟

قال بصوت يكاد يفتك به الأنين: كانت الحالة بسيطة في وجهي

إلى أن ذهبت لأخذ جرعتي من حقنة من المفترض أنها ستقوم بشفائي، ولكن كانت لها مدة معينة ولا بد من التجديد وكانت لها أعراض جانبية جنونية، لدرجة أنها كادت توقف عضلة القلب، أو هذا ما شعرت به.. وضيق في التنفس أيضًا.. قررت ألَّا أكمل الحقن وقمت بأول عملية كحل جذري للمشكلة بدلًا من الحقن وفشلت العملية، ما استلزم الثانية والثالثة والرابعة.. إلى أن أصبح وجهي محل حيرة الأطباء وما استطاعوا تصحيح أخطائهم الشنيعة من العملية الأولى الفاشلة تمامًا.. وقررنا التوقف لأن التكاليف كانت رهيبة ولن تتحمل عائلتي كل المصاريف الضخمة للعمليات، خصوصًا أن الحالة كانت تسوء دائمًا، حتى إن الحقن بها سميات ذات أضرار جانبية مؤلمة. هل سمعتِ عن السيدة التي لم تستطِع أن تغلق عينيها؟

قلت في عجب: ألهذه الدرجة؟

- هذا ما حدث في الخارج، واستضافوا هذه المرأة في أكثر من برنامج ليعرف الناس مخاطر عمليات التجميل وكيف قد تصل ببعض الحالات إلى تشوه كامل.

- فعلًا الطب له أخطاء قاتلة.

- للأسف البعض باع ضميره من أجل المال.. إنهم حتى لا يفصحون عن الآثار الجانبية للعقاقير.

- إن شاء الله ستتحسن في يوم ما.. هناك أمل دائمًا.. أنا أثق في هذا.

دخل علينا «البحيري» فجأة وقال: الله الله! ما أجمل منظركما معا! الجميلة والوحش.. هههههه.. كيف تجلسين مع هذا الزومبي؟ قم من هنا فورًا.

صرخت في «محمد» بغضب عارم: اسكت يا «محمد».. دعنا وشأننا.. ثم ماذا فعل لك من أجل هذه المعاملة الوقحة؟

فجأة شعرت بانسحابه من خلفي وقال هامسًا لنفسه: فعلًا الجميلة والوحش.. هذه حقيقة الموقف.

«البحيري» كان دائم التقرب مني وبدأت محاولاته في البداية كنوع من السيطرة، إلا أنه سرعان ما وقع فعلًا في حبي، حتى إنه قطع علاقاته بكل البنات اللاتي عرفهن، وهو يعرف عددًا لا بأس به!

يوم أن مات «البحيري»، كنت أقف بفستان الفرح الذي ملأته الدموع.. ربما لم أكن أبكي حبه؛ فأنا أعترف أني لم أصل لمرحلة الحب أبدًا مع «البحيري»، لكني كنت أشفق عليه، خصوصًا عندما وصلتنا، في القاعة، طريقة موته.. مَن المجرم الذي يستطيع أن يفعل هذا؟ هل ماتت القلوب لهذه الدرجة؟ ولماذا اختار يوم فرحه؟ لقد بدل أسعد أيامي إلى أسوأ أيامي.. لم أكن أبكي «محمد البحيري» وحده بل سوء حظي.. فأول من أحبني مسخ وثاني من أحبني مات!!

لقد تمنيت أن أحظى في حياتي بالحب الحقيقي الذي يكون أقوى من الموت؛ فقد تستطيع أن تختار الموت ولكن ليس بيدك أن تختار الحب.. إن الحب هو حيلة سحرية يفعلها ملاك لإبهار ملاك آخر،

ونحن الحيلة نفسها!

حياتي كانت دائمًا رحلة بحث.. الحياة رحلة بحث عن الحب ولكنك ستضطر لانتظار الحب الحقيقي..

رحلة بحث عن المستقبل ولكنك ستنتظر الإرادة..

رحلة بحث عن السعادة ولكنك ستنتظر الحظ..

ورحلة بحث عن الحرية الكاملة ولكنك ستنتظر اللحظة المناسبة..

دائمًا سنبحث ولكن الانتظار سيفرض سيطرته أيضًا.

دخلت على «المسخ» في إحدى المرات وهو يكتب في ورقة وحاول أن يخفيها فقلت له: ما الذي تكتبه؟

قال في خجل: كلمات بسيطة أواسي بها نفسي.

- لا يوجد علاج أفضل من الكلمات لهذه الحياة التي نعيشها.

- كان نزار قباني يقول: «خلاصنا في الرسم بالكلمات».

قلت في فضول: هل من الممكن أن أرى ما الذي كتبته؟ ألسنا صديقين؟

أخذت الورقة وقرأت ما كتب: «تشعر أنك عاشق حقيقي عندما تلعب مع الطبيعة لعبة (الحواس الخمس).. أن تلمس الأزهار بيديك.. وتستنشق القمر.. وتسمع صوت المطر.. وتتحدث مع الريح.. وترى قوس قزح في كل مكان.. فحينها تستطيع أن تصل إلى الحاسة السادسة وهي (الحب)».

قلت مبتسمة: جميلة جدًّا.. أنت كاتب موهوب.

ابتسم لي ابتسامته المرعبة المعتادة وانصرف في خجل فجأة.. تعودت منه على تصرفاته الغريبة.. أظنه عاشقًا.. نعم.. أظن أني أول حب له ولكني لا أعرف موقفي بعد.

وقفت أبكي حظي على الفستان الأبيض حتى ابتل بلون كحلي.. من الصعب أن تفقد كل شيء قبل أن تملك أي شيء.. إحساس فظيع انتابني في هذه الليلة.. رأيت خلف دموعي أحد الأشخاص يقف من بعيد يكاد المعطف يخفي وجهه تقريبًا، لكنه يقف في ثبات وكأنه ينظر إليَّ.. لم أعرف حينها من هو، ولكني ما زلت أذكر أنه كان يقف كالتمثال وينظر بثبات.. لم أذكر إلا دموعي ومقتل «البحيري» زوجي المستقبلي وهذا الرجل.

اختفى فجأة من أمام ناظري حينما خرجت من القاعة وكأنه أحس بالخطر.. هل كان له علاقة بالجريمة أم أنه فقط انتابه الفضول لمعرفة سبب دموعي؟

وقفت عمتي تواسيني كعادتها وتؤكد لي أن القادم أفضل وألَّا أحزن أبدًا وألَّا أيأس، وقالت وهي دامعة العينين: حذارِ أن تيأسي يا «مريم».. اجعلي الحلم دائمًا قبلتك واتجاهك.. احلمي يا «مريم» وعلى قدر الحلم تكون الحياة يا حبيبتي.

حاول الجميع مواساتي وكنت دائمًا ما أجد في الكتب عزائي وسلواي.. سأل أحدهم سقراط ذات يوم وقال له: كيف تحكم على إنسان؟ فقال له سقراط: أسأله: كم كتابًا قرأ؟

اتجهت إلى القراءة لفترة لمحاولة الهروب من اليأس، وكلما يئست كنت أحاول قراءة إحدى القصص عن الأمل والحياة، خصوصًا قصة الكاتبة «هيلين كيلر» التي كانت بالنسبة لي شمعة أمل تضيء للجميع حياتهم به.. لقد كانت فاقدة للسمع والبصر، ومع ذلك فعلت المستحيل وأصبحوا يلقبونها بالمعجزة البشرية.

بدأت حالتي تتحسن تدريجيًّا مع الوقت؛ فأحيانًا يشفي الوقتُ الجراحَ، وأحيانًا تكون الجراح هي الوقت نفسه والعمر كله!

اختفى من أحبني بإخلاص وشغف، وهو «المسخ»، ومات من قرر أن يتزوجني.. لقد فقدت كل الحب من حياتي ولم يتسنَّ لي حتى أن أودع كلًّا منهما.

لقد اختفى «المسخ» بعد الجامعة وبعد وفاة والده.. اختفى تمامًا وكأنه عاش تحت الأرض، حتى إخوته لا يعرفون مكانه ولا يعرفون أين يعيش تحديدًا.. إنه لا يزور أحدًا ولا يظهر على الإطلاق. آخر مرة شاهدوه قالوا إنه نقل صندوقًا كبيرًا معه وترك وظيفته وانعزل عن العالم بمبلغ من المال ورثه عن والده قد يوفر له حياة معقولة.

«سارة»

عدنا مرة أخرى لبعضنا.. عاد «رائد» إليَّ واتفقت معه ألَّا أجهض الطفل وألَّا يحاول حرماني من نعمة الأمومة ووافق هذه المرة بعد إلحاح.. لكنه أصر على رفض فكرة الزواج تمامًا.. مارسنا الجنس لأيام.. فقد ابتعدنا عن بعضنا لمدة طويلة بسبب اختفائه فترة وبسبب ظروف أخي الذي لم نجده وبسبب وفاة أمي.. والآن عدت إليه وزرعت نفسي بين أحضانه مرة أخرى كزهرة تحتاج لمن يرويها بمائه العذب الجميل الدافئ.

قال بعد أن انتهينا في أحد الأيام: أنا أتابع التحقيقات أولًا بأول.. لا يوجد أي خبر عنه للأسف.

قلت في خيبة أمل: ترى أين اختفى؟ أوحشتني يا أخي.

- سيكون بخير.. لا تقلقي.. «سالم» عاقل ولا أخاف عليه.

قلت وأنا أدعو: يا رب يا «رائد».. يا رب.

خرجت من الغرفة لكي أستحم وعدت إلى «رائد» مرة أخرى فوجدته في الصالة يرتب بعض الأشياء فجمعت الملابس لأقوم بغسلها وفزعت فجأة لما رأيت بدلة وضعها تحت المرتبة بغرابة وكان يغطيها الرمال.

ما هذه البدلة؟ أول مرة ألحظها عند «رائد».. ولماذا هي مغطاة كليًّا بالرمال؟ لقد كانت بدلة «سالم» مغطاة بالرمال قبل أن يختفي..

ترى هل قابله آخر مرة؟ بل هل يكون له دور في اختفائه؟
ألهذا حذرني «سالم» أكثر من مرة من دون سبب من «رائد»؟ هل يكون للمسخ وجه آخر أو قلب آخر غير «رائد» الطيب الذي يعاملني كقطته الأليفة؟
ما السر وراءك يا «رائد» الذي تكتمه عني؟ وما السر الذي تعرفه يا «سالم» عن «رائد» الآخر الذي لا أعرفه؟
سألته وقلت: ما هذه البدلة يا «رائد»؟ هل أغسلها لك؟ لماذا تضعها تحت المرتبة؟
قال في فزع: لا.. اتركيها.. لماذا تفتشين في هذه الأغراض يا «سارة»؟ كيف وصلتِ إليها؟ أنا سأوصلها للمغسلة بنفسي.. كنت أرتب الغرفة ونسيتها تحت المرتبة.
- أليس هذا غريبًا؟
قال وهو ينفث سيجارته في غضب: وما وجه الغرابة؟ هل هو تحقيق؟
- لا يا «رائد» ليس تحقيقًا.. عمومًا أنا سأخرج الآن لشراء بعض المستلزمات.. هل تريد شيئًا؟
- لا.. شكرًا يا «سارة».
الرمال هي مفتاح اللغز.. من المستحيل أن تكون صدفة.. لقد تقابلا قريبًا.. إنه ليس ترابًا.. إنها ذرات رمال صفراء واضحة، وكأنهما كانا في صحراء مثلًا أو مكان مشابه.. ولكن ما الذي بينهما أصلًا من

ورائي ليحاول «رائد» إخفاء «سالم»؟
أظنها أوهامي فقط؛ فـ«رائد» ذو القلب الطيب لا يمكن أن يقوم بشيء مما أتخيله.. إنه أطيب مَن رأيت طوال حياتي.
عدت سريعًا ودخلت الشقة فوجدت «رائد» في المطبخ يقوم بإعداد فنجان القهوة الخاص به، لكني لمحت الصندوق بطرف عيني.. إنه يكاد يمتلئ عن آخره.. إن القفل يُغلَق بصعوبة من كثرة ما بداخله.. ما سر صندوقك يا «رائد»؟
حاولت الاقتراب منه ولمحني «رائد» وقال: ماذا تفعلين يا «سارة»؟ ثم متى وصلتِ؟
- منذ فترة.. ألم تشعر بي؟
- لا.. لم أرَكِ.. لنجلس في الخارج، لديَّ فيلم جيد لمشاهدته.
لأول مرة منذ أن عرفته بدأت أخاف.. حتى إنه مد يده يتحسس صدري ونحن نشاهد الفيلم، ولكني ارتعدت وخفت منه، ولا أعلم لماذا أصبحت أخاف منه لهذه الدرجة منذ رأيت البدلة.. هل أصاب أخي بمكروه؟
لا بد أن أفتح الصندوق الخاص به.. لا بد أن أجد أي شيء يوصلني إلى حقيقة «رائد».. وتقريبًا لا أجد خبايا في حياته إلا هذا الصندوق الذي يقف بجانبه دائمًا ككلب حراسة وكأنه يشم من يحاول الاقتراب منه ويظهر فجأة ليقول: ابتعدوا عنه.
صعب أن تفهم حقيقة البشر بسهولة كما تتوقع.. إنهم يخفون

أكثر مما يُظهرون ويقولون أقل مما يكتمون ويفعلون أقل مما يستطيعون فعله!

سأكسر هذا الصندوق في أحد الأيام ولكنها ستكون نهاية علاقتي بـ«رائد» بالتأكيد.. إنه يعشق هذا الصندوق أكثر مني.. أكثر من أي شيء.

«مريم»

معقول؟

هكذا صحتُ بدهشة عندما وجدته أمام باب الشقة.. إنه «المسخ».. أين اختفى؟ وكيف عاد من جديد؟ لقد أحسست بشيء من الدهشة المشوبة بالحنين.. نعم افتقدته حقًّا وافتقدت تلك الأيام.. إنه يذكِّرني بـ«البحيري» وأيام الجامعة، لكنها ذكريات مبهجة؛ فذكرياتنا حتى ولو زينة ستبقى جزءًا منا ومن مستقبلنا.

قلت له في فرحة وأنا مرتدية ملابس الحداد: كيف حالك؟ أين أنت كل هذه المدة؟ كلنا نبحث عنك منذ زمن طويل.

- لا تقلقوا.. أنا بخير.. أنا فقط أعيش في مكان هادئ ولا أحب أن يعرفه أحد.. البقاء لله يا «مريم».. «محمد» إنسان كريم كان يستحق كل خير.

على الرغم من شعوري بأنه يقولها من وراء قلبه بالطبع فإنني استقبلت مجاملته بابتسامة وقلت: البقاء لله.

- هل هناك جديد في التحقيقات؟ لقد سمعت أنها كانت جريمة بشعة.

- لا يوجد أمل.. مات مخنوقًا ولا أحد يعرف من الذي ارتكب الجريمة وكأنها جريمة مدبرة بذكاء، حتى إن المجرم استغل وقت خروج حارس العقار، على الرغم من أنه يخرج أوقاتًا قليلة جدًّا في

أيام معينة.. من المؤكد أنه كان يعلم أوقاته ويخطط لكل شيء.
قال في غضب: شيطان.. هؤلاء قتلة وكفرة.
قلت محاولة تهدئته: قضاء الله.. ماذا سنفعل؟ لكن الحق لا يضيع أبدًا.. سنعرف الحقيقة يومًا ما.
- فعلًا، الحق لا بد أن يعود لأصحابه.. شكرًا على القهوة يا «مريم».
قلت في تعجب: ستغادر مرة أخرى؟ ستتركني مرة أخرى وتختفي؟
شعرت بغرابة في جملتي التي قلتها فقلت بسرعة: أقصد: ستتركنا مرة أخرى؟
قال في انتكاسة: هذا قدري.. قدري أن أرحل وأرتحل.
قلت في حدة: أنت من وضعت هذا القدر لنفسك.. هذا ضعف وليس قدرًا.
قال في غضب عارم: ماذا تعرفون عن الضعف والخوف؟ هل تعرفون كيف يعيش إنسان في كهفه ولا يستطيع أن ينظر لهم بسبب نظراتهم المرتابة والخائفة؟
هل عرفتم معنى أن يلبس الشخص قناعًا في بيته كي لا يرى صورته ولو بالصدفة في مرايا المنزل؟
ضعف وخوف؟ هؤلاء أعز أصدقائي.. لولاهم لكنت ميتًا.. هذه الكلمات هي سبب حياتي بدلًا من الأمل الكاذب.. أنا ضعيف وخائف وعرفت حقيقتي بدلًا من تفاؤل وهمي يصدمني بنهاية موجعة.

- افعل ما تشاء.. عِش في ضعفك.. ابقَ كما أنت لا تعرف من في صفك ومن ضدك. ابقَ جبانًا طالما تود أن تعيش جبانًا.. أنا لا أحب أن أجلس مع جبان.

لأول مرة أحتد عليه.. لأول مرة يحدث بيننا هذا الخلاف.. شعرت بالندم.. صافحته وقلت: أنا آسفة.. احتضنني لأول مرة بشكل جنوني وكاد يطبق على صدري وقال وهو ينتحب كالمجنون: أنا آسف.. أنا آسف يا «مريم» لأني رفعت صوتي.. لا أعرف كيف فعلت هذا صدقيني.. أنا مسخ يا «مريم».. اعذريني.. اعذريني يا حـ...

كاد ينطقها لأول مرة.. كاد يقول كلمة «حبيبتي».. لقد خرجت الدموع من عينيه كبحرٍ فقد وقاره.. نظر في عينيَّ وبدا يهدأ. اليوم أيقنت وعرفت حقيقة شك السنين.. إنه يعشقني بشكل يقيني وقطعي.. وبجنون.. نعم، بجنون.. لكنه يضحي ويختفي لكي لا يضعني في الاختيار.. إنه يخاف أن يشعر بالرفض فلا يعرض عليَّ الأمر أصلًا.. حب سري شريف رائع أقدره ولا أعرف كيف أتعامل معه.. أحيانًا أشعر أني أشفق عليه وأحيانًا أني أحبه وأحيانًا لا أشعر بشيء.. أنا غير واثقة في مشاعري، فلن أظلمه أيضًا.. لن أظلمه معي كما يحب هو ألَّا يظلمني معه.

في عالم الألوان تستطيع أن تحصل على ملايين الألوان من خلط ثلاثة ألوان فقط.. نفس الحال في عالم المشاعر، تستطيع أن تحصل على ملايين الأحاسيس من «الخوف والحلو والحب» فقط.

إنه يعود للنهاية من جديد.. يريد أن يختفي من وجودي مرة ثانية.. لا أومن أبدًا بجملة «النهاية السعيدة» إلا في عالم الأفلام ولكن ليس في عالم الواقع.. كيف تكون «نهاية» و«سعيدة»؟ كل النهايات مؤلمة.. كل النهايات مؤلمة.

قلت له في خوف: ابقَ معي هذه المرة.

قال وأنا أشعر برعشة يديه: لا أستطيع.. مكاني ليس هنا.. أنا مكاني الظلام.

- حتى مع من ترى معهم النور؟

قال في حزن: أخاف أن أحجبه عنهم وأخاف من لحظة النور.

- لكن نور قلبك لن ينطفئ أبدًا.

- ممَّا أكتمه بداخله.

صحت دامعةً: أعلنه.. حرره.. فك أسره.. أوصله للحقيقة.

- للأسف يا «مريم»، حريته في أسره.. مفروض عليه حبسه الانفرادي.. مكتوب عليه ألَّا يستطيع النطق بالحقيقة.

- ما فائدة الأسرار لو متنا بها؟

- لكي تعيش يا «مريم».. وستكون في يوم ذكرى جميلة تهوِّن على أحدهم جرحه.. هناك أشياء لو متنا بها تحيا.. مثل الحب.

إنه أشبه باعتراف.. لقد اعترف بحبه بعد سنوات من البكاء والألم والكتمان.. وقفت على الباب وهو يلبس معطفه ويغادر بسرعة أبكي كالمجنونة.. لا أعرف هل أبكي فراقه أم أبكي على حاله. ما زلت

حتى وقلبي يدق لا أعرف هل أحبه أم هو مجرد شعور عابر.. ثمة شيء يصدني عن إكمال الطريق.. ربما قبحه.. ربما شيء آخر.. ولكني في بعض المرات ظننت أني وصلت لحالة الحب معه ولكنها أبدًا ما اكتملت.. حب لا يكتمل.. ولكني لا أريد فراقه.. ولهذا يهرب.. وهو قادر دائمًا على الهرب.

كانت الأغنية تقول: «كم جميلًا لو بقينا أصدقاء».. كنت أسمعها مئات المرات، وفي كل مرة أفكر فيه.. هل من الممكن أن نبقى صديقين؟ ثم أقول لنفسي: لا يمكن.. حتى إن استطعت أنا فهو لن يستطيع.. هو يريد الحب، ولكنه يبقى في خانة الصداقة ليؤدي دوره فحسب.. ولن يستطيع أبدًا أن يكمل الدور لأنه صعب.. إنه أصعب أدوار الحياة: أن تبقى في خانة الصديق وأنت عاشق حتى أخمص قدميك.. ستضطر إلى خيانة أحدهما، إما أن تخون الصداقة من أجل الحب وإما أن تخون الحب من أجل تمثيل دور الصداقة.. وفي الحالتين هي خيانة نبيلة!

«رائد الألفي»

شبح أبي يطاردني الآن وكأنه يقول لي مرة ثانية: بماذا تشعر يا «رائد»؟.. هل تريد أن تعرف بماذا أشعر بعد لقائي «مريم».. آه.. تبًّا للجميع.. تبًّا لكل من يريد دائمًا أن يكشف عن إحساسي ولكني سأقول لكم كيف أشعر..

أشعر أني صراخ طفل يحتضر تاهت السبل في الوصول إلى حقيقة ما يعانيه، فما أشقاه! كان الله في عونه ورحم الله طفلًا عجزت الليالي عن أن تشفيه.

أشعر بأنني حزن جف بين عينَي أرملة.. كفها المرتعشة على قبر من أحبته عمرًا وأجيالًا.

أشعر أن حياتي كلها مكتوبة بصيغة الماضي، فأنا لا أعشق، بل عشقت، لا أرحل، بل رحلت، لا أعيش، بل عشت.. ولكن «مريم» هي صيغتا الحاضر والمستقبل.

أشعر بحالة فصام روحي.. جزء مني يتوق إليها ويتمنى لو امتزجت بذرات روحي، وجزء يتمنى لو لم تكن موجودة على الإطلاق.. لو كانت سرابًا.

أشعر بأنني آخر حراس الحب.. للحفاظ عليه حرًّا.. للحفاظ على ياقته البيضاء التي لا تصطبغ بلون كلمات كارهي الحب الملوثة.. الناقمين على الحب والحياة.. سأظل حارس الحب ولن تغفل عيناي

أبدًا.
أنا رجل فصيلة دمه «مريم».. دخلت عينيها بطلًا خرجت منهما طفلًا يشاغب.. ستعشقون في يوم ما.. ستعشقون جميعًا.. وحينها ستقفزون كالمجانين.. وحينما يسألكم أحدهم: ماذا تفعلون؟ لماذا تقفزون؟ ستقولون في جنون واضح: نحن نحاول أن نقبل يد الله!
لماذا يا «مريم» دفن الجمال سره في عينيك وهرب؟ ولماذا تكحلت الزهور من أناملك؟ ولماذا أسأل بين ضلوعك عن عمر الشمس وأشتمُّ كوكايين الأحلام؟
جعلتِ مني يا «مريم» ساعة رملية.. دمعي رمال ونبضي عد تنازلي.. لم أعد أستطيع الهرب يا «مريم».. فالحب صار أقرب إليَّ من حبل الوريد!
فلا زهرة بحثت عن عالم كمالها وجمالها إلا في حديقة أنتِ بها يا «مريم».. هم يقطفون الزهور من أجل النساء ولكني أقطفك يا «مريم» من أجل الحياة والربيع.. أنتِ زهرة الكون كله يا جميلتي.
ما زالت هوايتي أن أصطاد الغزلان بين عينيك وأتلذذ في مواسم التوت.
الحب هو السم الشافي والمصل القاتل والحلم المرعب والكابوس الرقيق.. شهد يسيح على هجرة الروح..
عدت مسرعًا إلى «حسام».. صديقي ومَن يحتمل أن أشكو إليه كل همومي.. فتح لي الباب واحتضنني.. وكان جاره كالعادة يتلصص

علينا من «العين السحرية»، ويظهر هذا في اختفاء ضوئها فجأة.. إنه دائم التلصص علينا.. حتى فتح الباب فجأة وقال: هل هناك شيء ما يا «حسام»؟

قال «حسام» وهو يدخلني الشقة بسرعة: لا يا أستاذ «حجازي».. كل الأمور بخير.. شكرًا لك.

دخلت مسرعًا.. قال لي «حسام» في لهفة: ما بك يا «رائد»؟

- لقد رأيتها أخيرًا مرة ثانية بعد سنين.. أول مرة أحتضنها.. كأنني احتضنت الدنيا كلها، كأنني احتضنت لحظة ميلادي.

قال في تنهيدة: «مريم»؟

- ومن غير «مريم»؟ دنياي كلها..

- دنياك التي تهرب منها؟

- وهذه الحقيقة.. أنا فعلًا هارب من دنياي وهارب من «مريم».. لكني أصبحت قلقًا من «سارة».

- ماذا فعلت؟

- لقد رأت البدلة، ومن لحظتها أشعر أنها تغيرت.. أشعر أنها تشك في شيء.

- هل بلغت عن اختفاء أخيها؟

- لا طبعًا.. لقد قلت لها فقط إني بلغت وإني أتابع بنفسي، لكني لم أبلغ.

قال في غضب: خطأ طبعًا.. افترض في يوم أنها قالت لك لنذهب

للقسم.. ستزيد من شكوكها أكثر.. كان لا بد أن تبلغ وأنت واثق أن الجريمة لن تُكشف.. لقد مات في مكان لا يستطيع أن يصل إليه الجن الأزرق نفسه.

- لن أدخل في متاهات مرة أخرى و«سارة» أصبحت «كارت» محروقًا.. ولا بد أن أنهي علاقتي بها.

- لا.. حتى «سارة»؟! أنت تتخلص مِن كل مَن حولك فردًا فردًا.. اترك أحدًا في دنياك.. قوتك ستنقلب عليك يا «رائد» يومًا ما.

- هل تذكر يوم أن ضربت «البحيري» في الجامعة؟ لقد كنت سعيدًا وتبتسم.

- طبعًا، وتعجبت من قوتك التي تظهر فجأة في مواقف معينة..

- لقد أصبحت أقوى يا «حسام».

قال في أسى: هذا واضح يا «رائد».. واضح جدًّا.

- هل الصندوق في أمان عندك؟

- لا تقلق.. ولكن هل تحتاجه الآن؟ أشعر أنه امتلأ عن آخره.

- لا.. لم أعد أحتاجه الآن.

«سارة»

أصبحت أشك في كل شيء.. من يوم البدلة وأنا أشك في من أحببته بجنون وهو لا يرد على الحب أبدًا.. إنه مجرد عاشق ليل فقط.. أنا بالنسبة له نزوة في أحشائها طفل لا يريده ولا يرغب فيه.

لا توجد أبدًا لحظة مناسبة لمعرفة سر هذا الصندوق الغريب.. إنه دائمًا يراقبه، وحتى إن حانت اللحظة المناسبة فإنني أجده خلفي فجأة.. فتحُ القفل سيأخذ وقتًا كبيرًا، وفي هذه الحالة أنا مضطرة لخطة بديلة.. مضطرة لحمل الصندوق كله مرة واحدة والهرب به.. بدلًا من محاولة فتحه التي ستأخذ وقتًا.. نعم سأحمل الصندوق كاملًا وستكون نهاية علاقتنا بالتأكيد.. لقد بدأت علاقتنا تتغير تمامًا.. دخل الشك بيننا منذ اختفاء أخي ومنذ أن كره أن أحمل طفلًا منه.. إنه لا يريد أي شيء مني ولا حتى طفلًا ملائكيًّا.. إنه يكرهني.. وأنا بدأت أفكر بعقلي لا بقلبي.

إن الصندوق أحيانًا معه وأحيانًا يقول إنه نقله إلى «حسام».. مَن «حسام» هذا الذي لا يريد أن يجعلني أراه حتى على الرغم من أنه صديقه؟

قلت له ذات مرة: ألن نزور «حسام»؟

قال في غضب: نزور؟ وما شأنك به؟

- ألم تعدني مرة أننا سنزوره وقلت إنه صديقك وأقرب مَن لك.

- لا.. كانت فكرة غبية.

- ما السر بينك وبينه؟ ماذا يحدث يا «رائد»؟

قال وهو يشرب قهوته في برود: لا سر ولا أي شيء.. صديقي ولا داعي لأن تعرفيه أنتِ.

- ألا تلاحظ أن الأسرار بيننا زادت جدًّا؟

- مثل ماذا؟

- لا أبدًا.

أنا لا أظن أنه ينقل الصندوق إلى «حسام».. إنه يخدعني.. أحيانًا يحتفظ به في الغرفة التي ننام بها أسفل السرير، وأحيانًا ينقله إلى الغرفة المقابلة التي يغلقها دائمًا بمفتاحين ولا أحد يدخلها.. ما زلت غير متأكدة أنه ينقله إلى «حسام» بالفعل، أظنه ينقله إلى الغرفة في الداخل.

ولكن في أحد الأيام التي سيكتب فيها ويضع الصندوق في غرفتنا، سأقوم بالخطة كاملة.. حان الوقت يا «رائد» لمعرفة كل شيء.. ولكن ماذا لو كان الصندوق يحوي شيئًا بلا قيمة؟ لا أعرف حينها ماذا سأفعل، سأكون قد أنهيت علاقتي برائد بسبب شيء تافه.. ولكن كيف يكون شيئًا تافهًا وهو يقضي وقتًا معه أكثر من وقته معي أنا؟ الحيرة تعصف بي وما زلت لا أعرف هل ما سأفعله صحيح أم لا.. هل ستكون خطوة الصندوق خطوة صحيحة أم سأدمر علاقتنا بسبب اللاشيء في النهاية؟

علينا في النهاية أن نأخذ القرارات الحاسمة في حياتنا حتى لو كنا نظن أنها ضدنا، ولكن وقتها إن جاء فلا بد من تنفيذها.. شيء ما يدفعني إلى هذا الجنون وأظن اللحظة قد حانت.

«حجازي عبد الله»

منذ أن جاء «حسام الراوي» إلى هذا المكان وأنا أعرف بحسي الصحفي واستنتاجي أن هناك شيئًا ما مريبًا يحدث.. قطع «حسام» علاقتي به منذ فترة، كنت أريد أن أعرف عنه المزيد، ولكن هذا الغموض أيضًا أفادني قليلًا.. بدأت أراقبه وأسمع الأصوات في الداخل.. هل ما أشك فيه صحيح؟ لا أعلم ولا أريد أن أصل إلى نتيجة الآن، سآخذ كل وقتي وسأعرف في الوقت المناسب، وحتمًا ستكون خبطة صحفية وربما رواية كاملة أخرج بها من قصة هذا الرجل الغامض جدًّا.. الغامض إلى حد الجنون!

يأتي راكضًا أحيانًا ومليئًا بالعرق، وأحيانًا يخبئ عني شيئًا ما بالداخل ولا يريدني أن أدخل.. تدخل إليه امرأة وتخرج أحيانًا.. سمعتهما يتحدثان تقريبًا عن «رائد».. أيضًا لا أعرف ما الذي جاء بسيرته حينها.

لن أترك قصتك تغيب عني يا «حسام» حتى لو اختبأت مني وهربت.. ولكن لِكم من الوقت ستهرب؟ فأنا جارك، ومن يستطيع أن يهرب من جاره يا «حسام»؟ سأصل إلى ما أريد حتى لو عن طريق هذه المرأة أو عن طريق أي أحد.. يومًا ما سأصل إلى نهاية القصة المشتعلة.

لقد سمعت منذ يومين صوت بكاء حار داخل الشقة ليلًا.. نحيبًا

وصل إليَّ عن طريق «المنور» المطل على شقة «حسام».. ما الذي يُبكيه في منتصف الليل؟ ما الذي حدث الآن؟ لماذا لا تحكي لي وتُخرج همومك يا «حسام»؟

لقد كنت صديقك منذ زمن، فما الذي تغيَّر؟ كنت دائمًا أشعر بالغموض في شخصيتك وكنت تختفي فجأة وتغادر المقهى الذي نجلس عليه وأحيانًا تهمس في الهاتف، وفي إحدى المرات سمعت رنين الهاتف وأنت تمسك به بين يديك.. لماذا ادعيت أنك تتحدث وأنت لم تكن تتحدث فيه من الأساس؟

«سارة»

حانت اللحظة الحاسمة.. دخل إلى الحمام ليستحم بعد علاقتنا المعتادة.. وجدت الصندوق في مكانه.. إنه ثقيل جدًّا.. ولكني جعلت العربة تنتظرني أسفل العمارة.. تنتظرني منذ ساعات استمتعنا فيها بجسدينا المتوهجين.. أحيانًا يكون «رائد» كالثور الهائج فوقي وهو اليوم كذلك.

لبست ملابسي بسرعة وحملت الصندوق.. فتح باب الحمام.. ياللمصيبة.. هل سيراني؟

قال: «سارة».. المنشفة من عندك إذا سمحتِ.

قلتُ وأنا أتلعثم: حســ... حسنًا يا حبيبي.

ناولته إياها وأكملت طريقي نحو باب الشقة.. على الأرجح ما زال هناك وقت لحلاقة ذقنه كما قال.. أمامي وقت لأحمل الصندوق وأنزل به أمام العمارة وأرحل مسرعة بالسيارة الأجرة.

حملت الصندوق وأنا أعرف أنه يوم الوداع.. إنني لن أعود إلى هذه الشقة أبدًا.. لقد كانت علاقتنا الأخيرة اليوم ومرور جسدينا العابر الأخير.. إنه الوداع يا «رائد».. لقد كرهتني أنت على الرغم من أني أحببتك.. ولقد اختفى أخي ولا أعلم ما السر وراءك ولماذا أنت متغير منذ أن اختفى.

سواء كان في هذا الصندوق سر مهم أم لا، فأنا كنت موقنة من

النهاية.. النهاية حان وقتها الآن يا من أحببته بصدق ولم يحبني أبدًا.

نزلت ببطء سلحفاة وأنا خائفة أن ينكشف الأمر.. وصلت إلى العربة.. وكان آخر ما سمعته في أذني صرخة مدوية أطلقها «رائد» من الشباك في آخر لحظة قائلًا كالرعد الصارخ: «ساااااااااااااااااااااارة». لو كان أمسك بي فأظنه كان سيقتلني بالتأكيد أو يضربني ضربًا مبرحًا.. إن علاقته بهذا الشيء مَرَضية وغريبة.. وكأنه يعاشر هذا الصندوق معي أيضًا!

وقفت سيارة الأجرة أمام بيتي.. نزلت مسرعة ودفعت له المبلغ الذي اتفقنا عليه وقال: هل أحمل معكِ؟

قلت: لا.. شكرًا.

غادر المكان وأسرعت إلى المنزل لمعرفة حقيقة هذا الصندوق.. أنا الآن في أمان.. لن يستطيع «رائد» أن يقترب من الحارة؛ لأن كل أهل الحارة أصدقاء أخي ولا يعرفون «رائد»، فإن حاول الاعتداء عليَّ في منزلي فهو بالتأكيد يكتب شهادة وفاته.. زمان طويل وعائلتنا معروفة في الحارة ولكن منذ أن نهشنا الفقر وأصبح الجميع يتهرب منا.. كنت خارج الحارة عاهرة وداخلها قديسة.. وكذلك أخي، كلما سأله أحدهم: لماذا عدت مبكرًا من العمل يا «سالم»؟

يقول: إحم.. لا أبدًا.. إنه عمل خفيف.. نصف يوم عمل فقط هذه المرة.

كان الجميع يظنه يعمل في السكرتارية في أحد المكاتب.. وقال إني أعمل أيضًا جليسة أطفال، ولهذا مواعيدي متضاربة.. كنا قديسين ولكننا كاللصوص.

صعدت إلى الشقة وأنا آخذ أنفاسي بصعوبة من اقتحم ألف ماراثون للجري.. اقتربت من الصندوق بحذر.. كنت أخاف منه كخوفي من «رائد» في الفترة الأخيرة.. أتيت بالعدة كاملة لكسر القفل.. بعد معاناة وسباق مع الوقت كسرته أخيرًا.. فتحت عالم الأسرار.. كان قلبي يدق بعنف لأنها لحظة حاسمة لكي أعرف هل سأقطع علاقتي بـ«رائد» لسبب يستحق أم أكتشف أن الصندوق بلا جدوى وأني ظلمته!

أوراق منثورة في كل مكان.. إنها كتاباته التي لم تكن تنتهي أبدًا.. مغطاة بغطاء أبيض شفاف مكتوب عليه «حسام الراوي».. لماذا كتب عليه اسم صديقه؟

بدأت أقلب في الأوراق وأجد خط «رائد».. إنه خطه الذي أعرفه جيدًا.. إنها أكثر من ألف ورقة على الأقل. ما كل هذا يا «رائد»؟ هل تكتب موسوعة؟ بدأت أقلب فيها.. لقد رأيت اسمي.. واسم أخي.. إنها أوراق غير مرتَّبة، ولكنها مجمعة معًا بعناية.. كل شخصية مكتوب عليها اسمها وتحتها مئات الأوراق.. من «البحيري»؟ من هذه الشخصيات التي لم يحكِ لي عنها أبدًا؟

وهناك ملف كامل مغلق بإحكام بملصقات خضراء مكتوب عليها

«مريم».. نعم، إنها حبيبته «مريم»، خصَّص لها ملفًّا كاملًا.
بدأت أعد الأوراق وأضع كل مائة ورقة معًا.. إنها أكثر من أربعة آلاف ورقة حتى الآن.
بعد ترتيب الأوراق سأبدأ في قراءتها كي أفهم هذا العالم.. عالم «رائد».

«رائد الألفي»

لقد سرقت «سارة» كل حياتي ولم تسرق الصندوق فقط.. صندوق أعيش فيه.. يحتويني وأحتويه.. سنوات طويلة وأبي كان يسألني: بماذا تشعر يا «رائد»؟

ألم تتحيروا لماذا دائمًا أتذكر هذا السؤال؟

في أحد الأيام، وبعد أن عرفت «مريم»، كنت أحاول الحصول على هذا الصندوق الفارغ من فوق «السندرة» الخاصة بنا في البيت وحصلت عليه فعلًا ولكن بعد أن وقعت فوقي كثير من «الكراكيب» كعادة كل بيت مصري.. هناك أشياء لا جدوى منها مثل «الصيني» و«النيش» وغيرهما من الأشياء التي يقولون إنه سيأتي وقتها ولا يأتي هذا الوقت أبدًا.. لقد سقطت كل هذه الأشياء فوق ذراعي.

تألمتُ بشدة.. لم أعد أشعر بذراعي.. ذهبت للطبيب وأعطانا تقريرًا عن الحالة وعلاجًا، ولكن ما زال الأثر يظهر في ذراعي منذ زمن..

كان يقول لي بعد أن حملني سريعًا بعد السقوط من السلم في البيت: بماذا تشعر يا «رائد»؟ بماذا تشعر يا حبيبي؟

تعجَّب أبي من حبي الجنوني للصندوق، وحتى أواخر أيامه كان يسأل نفسه: ما الذي يفعله بهذا الصندوق؟ كان ارتباطي به جنونيًا، حتى إني كنت أدهنه أحيانًا وأضع عليه بعض الصور وأحيانًا أغيِّر له القفل كل فترة وأضع فيه حفنة من الأوراق وأغلقه، وكان كل هذا

بعد لقائي «مريم».. من بعد «مريم» ظهر عالم الصندوق.

«سارة»

يا الله! الفزع يعتريني.. تقيأت ثلاث مرات، حتى إني أخاف من فرط صدمتي على حملي وطفلي.. ما هذا الذي أقرؤه؟

من أنت يا «رائد»؟ كأني لم أعرفك طوال وقتي معك..

الدموع بعد الإحساس بالخيانة تمامًا كما التمني قبل الموت.. كلاهما بلا جدوى.

هذه الأوراق بعد أن رتبتها كأنني أعددت لنفسي سكينًا قاتلة أو كنت أعد مسدسًا كاتمًا للصوت أقتل به نفسي.. هذا الصندوق لن يخرج أبدًا من عقلي وحياتي.. إنها صدمة العمر.. إنه جنون العمر ونزيفه.

«رائد» قتل «سالم»؟ إنه يكتب هذا بخط يده.. إنه أشبه بسجلّ حياته الكامل.. كل خطوة.. كل يوم في حياته يلخصه في سطور منذ أن أحب «مريم».. كتب عن كل من قابلهم.. أنا و«سالم» لنا مئات الأوراق حتى مقتل «سالم».

لقد قتل «سالم».. قتل أخي الوحيد العزيز.. أخي الذي حاول أن يحافظ عليَّ وقتلنا الفقر معًا.. لقد قتله في مكان مجهول صحراوي..

والآن فهمت سر الرمال على ملابسه.. لقد خنقه برابطة العنق.

كانت صدمتي الثانية الأبشع التي قرأتها أن «سالم» نفسه قتل.. قتل بسبب المال. كأن «رائد» هو الشيطان الذي ظهر لتزيد حياتي أنا

وأخي شقاءً وبؤسًا.
«سالم» قتل «البحيري».. «رائد» قتل من أجل «مريم».. إنه يكتب كل شيء عن «مريم».. سأنتقم منك يا «رائد».. ليس بسبب أخي فقط.. بل بسبب أنك خدعتني ألف مرة..
رفضت ابني وحبي وقتلت من أجل امرأة أخرى وأنا في حضنك.. إنك مخادع يا «رائد»..
كأني مومياء محنطة الآن يشكلها الحزن كيفما شاء.. كيف لم أعرف حقيقتك أبدًا.. خلف المسخ مسخ.. بل خلف وجه المسخ وحش كاسر.. إنك لست أفضل من أي أحد قابلته من رجال السياسة يا «رائد».. إنك فاسد حتى النخاع.. لن نعرف حقيقة الناس أبدًا مهما عشنا معهم وظننا أننا نعرف كل خباياهم.. أحيانًا نصبح نحن أنفسنا جزءًا من خباياهم.. البشر لا أمان لهم.
لن أستطيع أن أواجه «رائد».. ولكنه بالتأكيد يعرف الآن أنه تحت التهديد الكامل.. كل أسراره معي وبخط يده.. أظنه الآن في حالة إعياء كاملة بسبب اختفاء الصندوق.. الآن عرفت سر خوفه عليه دائمًا.. إنه خزينة أسرار قد تودي بحياته.. إنها أدلة كاملة على ما فعل من قتل.. لقد جعل أخي يقتل «البحيري» لأنه يخاف من القتل، ولكن كيف استطاع أن يقتل هو؟
«رائد» قد شعر بأنه خسر كل شيء.. لقد حدثته هاتفيًّا منذ عدة أيام.. حاولت في المكالمة أن أهدده.. أصبحت أشعر بأني أحدِّث

إنسانًا آخر لا أعرفه.. إنه «رائد» المجرم القاتل.. الشيطان الأعظم.. الشيطان الذي دمَّر حياتي بعد أن كان المنقذ.
أمسكت الهاتف وانتظرت حتى رد وقال: فعلتِها يا «سارة»؟ لم أتوقعها منك.
قلت صارخةً: اخرس يا جبان.. ولا كلمة.. أنا التي لم تتوقع هذا منك.. كنت أظنك مسخًا من الخارج فقط.. اتضح أنك مسخ من الداخل أيضًا.. إنك أوسخ وأنجس من قابلت.
قال في استهزاء: وهل هذا لأني نمت معك في الحرام؟ هههههه.
قلت في تأثر: خسارة يا «رائد».. لم أتوقع أن أعيش هذا اليوم.. كم أنا مخدوعة.. كم أنا رخيصة أمام نفسي الآن وأنا أرى شخصًا وهبته كل شيء وهو لا يستحق أي شيء.
قال في غضب: ما الذي وهبتِني إياه أيتها العاهرة؟ أنا مجرد زبون واشتريت جسمك مثل كل من اشترى.. جسمك مزاد جميل.. ليس شيئًا جديدًا يا «خضرا الشريفة»!!
قلت: فعلًا ليس شيئًا جديدًا.. معك كل الحق.. يا «رائد» عندك حق.. الحق عليَّ أنا وعلى الظروف التي أوصلتني إلى هذا.
قال ضاحكًا: آه الظروف.. كل شخص «قذر» سيلقي حمله على الظروف.. كما قال الشاعر: نعيب زماننا والعيب فينا..
كل فاسد سيقول الظروف.. أخيرًا وجدنا الشماعة المثالية..
قلت: والقاتل يا «رائد»؟ على من يضع شماعته؟ أنت أكثر من

استعملت الشماعة.. استخدمت قبحك ورأفة الناس بك لأغراض انتقامية قذرة من بشر أبرياء.. لماذا قتلت يا «رائد»؟

قال في غضب: نعم.. الآن تملكين الصندوق وستقومين بتحليلي نفسيًّا.. أليس كذلك؟ أصبحت حياتي كتابًا مفتوحًا لكِ الآن أيتها «القحبة».

قلت: أنا أيضًا من حقي أن أنتقم يا «رائد».

قال: هل ستقتلينني مثلًا؟ هههههه.

قلت: لا، لن أقتل.. أنا لست قاتلة.. أنا في الدنيا مقتولة فقط.. ولكني سأستخدم القانون.. الشيء الذي لا تعرفه.. سأنتقم منك بالقانون وكل شيء مكتوب بخط يدك، و«مريم» لا بد أن تعرف الحقيقة.. حقيقة قذارتك.

قال: إذا عرفت «مريم» أي شيء سيكون عن طريقي قبل أن تصلي لها.. لم أعد باكيًا على شيء.. حانت لحظة الاعتراف.. لا يهمني ما معكِ، فلتبلغي الشرطة.

قلت: هذا ما سيحدث يا «رائد».. سآخذ حق أخي وحق «البحيري» الذي لا أعرفه.

قال في سخرية واضحة: «البحيري»؟! ماذا تعرفين عن «البحيري» كي تأخذي حقه؟!

قلت: أعرف أنه إنسان يا «رائد».. إنسان قُتل غدرًا يوم فرحه.

قال فجأة كهزيم الرعد وهو يصرخ: فرحه؟ فرحه على «مريم»؟

لقد سرق فرحتي.. سرق عمري في هذا اليوم.. تعرفين أنه إنسان؟ «البحيري» إنسان؟ الإنسان الذي كان يدمر كل يوم معنوياتي وحياتي في الجامعة وأمام الإنسانة التي أحببتها.. تخيلي إحساسي وأنا مهزوم في عز الوقت الذي من المفترض أن أكون فيه فارسًا على حصان أبيض وأنا أقع على الأرض وهي تنظر إليَّ بحسرة وتدافع عني.. أنا فارسها المهزوم.

لقد قتلني ألف مرة قبل أن أقتله، وتتحدثين عن القانون يا «سارة»؟ القانون لعبة للكبار بس.. لكن أنا الحق.. أنا العدل.. أنا الحكم الإلهي على «البحيري».

- مهما فعلت لن تبرر لنفسك.. لماذا تسمح أن تبرر لنفسك وترفض مبرراتي حينما أحدثك عن الزمن؟! أنت متناقض معتوه.

- وأنتِ عاهرة يا «سارة».. مجرد عاهرة نمتُ معها أيامًا وحملت مني في الحرام.

أغلقت الهاتف في وجهه وأنا أبكي على كل يوم عشت فيه مع هذا المسخ.. ظننت يومًا أنني وصلت حقًّا للحب الحقيقي واكتشفت «رائد»، ولكني كنت أعيش في بحر أوهامي الذي لم أجد فيه حتى طوق نجاة واحدًا.

حكى لي «رائد» في أحد الأيام وأنا معه أن هناك طبيبًا نفسيًّا يسمى ألان فرانسيس، كتب كتابًا يسمى «كل شيء يعرفه الرجال عن النساء» وترك الكتاب المكون من ١٢٨ صفحة فارغًا تمامًا، ما يدل

على أن الرجال لا يعرفون شيئًا عن النساء.. والآن اكتشفت أني أيضًا لا أعرف شيئًا عن الرجال وخيانتهم وغدرهم وحقدهم.

جلست أبكي أمام صورة أخي «سالم» وقلت في حسرة: سامحني يا أخويا.. أنا السبب في كل اللي إحنا وصلنا ليه.. أنا اللي وقعتك في سكة المسخ ده وأنا السبب في إن أبويا مش هيستريح في تربته.. أنا آسفة على كل يوم سببت لك فيه حزن وكنت نية لدموعك.. سامحني يا أخويا يا غالي على كل حاجة عملتها.. سامحيني يا أمي.. لكن كل شيء كان أقوى مني..

سامحني يا أبويا.. حقكم عليَّ.. حقكم عليَّ كلكم.

«رائد الألفي»

«الخيَّام» و«جبران».. ثنائي العبقرية اللذان يهوِّنان عليَّ الحياة..
كنت أعشق أبيات «الخيام» حين يقول في رباعيته:

غدٌ بِظَهْرِ الغيب واليوم لي..
وكم يخيبُ الظنُّ في المقبلِ..
ولَستُ بالغافلِ حتى أرى..
جمالَ دنياي ولا أجتلي.

حانت لحظتي الآن كي أرى جمال دنياي.. الجمال الذي حُرمت منه كثيرًا.. الجمال هو الشيء الذي خُلقت أعيننا لكي نراه.. «هيجل»، هذا الفيلسوف الألماني الرائع صاحب الأفكار العظيمة.. كان لعبد الرحمن بدوي، الكاتب الرائع، كتاب بعنوان «فلسفة الجمال والفن عند هيجل» وكان هيجل يقول عن الجمال إنه هو الذي تبدعه الروح الإنسانية.

كلمات أحاول أن أصبِّر بها حالي وأقول إن روحي هي سر جمالي، ولكن هل ما زالت حتى روحي جميلة مثل الماضي؟ من أنا الآن؟

كنت أشعر بنفسي وكأنني واقف تحت المطر مصابًا بالحمى مثل المشهد الرائع الذي قامت به كيت وينسلت في فيلم «Sense and Sensibility» لجين أوستن.. كان المشهد معبرًا عن حالي في تلك اللحظة، وما أروعها من جملة سمعتها في هذا الفيلم المأخوذ عن

الرواية حين قالت: «الموت من أجل الحب.. يا له من شرف ومجد».. فعلًا يا له من مجد.

يا له من مجد يا «مريم»، يا سري الأعظم.. أسرارنا هي حكمتنا العميقة وخطيئة قلوبنا الشهية.

كأنك حلم يقظتي وعصيري الشكسبيري الشهي.. كأنك إحدى سونيتات شكسبير تلهو بين ضلوعي بلا هدنة ولا هوادة.

الحب يا «مريم» طفل يبكي.. ستشعرين بدموعه بين دمائك وصرخاته في عروقك وحاجته في قلبك.. لقد قتلت قلبي الطفولي بيدي يا «مريم» ولم أعلن أبدًا عن حبي.. الحب عندي صعب مثل الوداع.. وداعك صعب يا «مريم»؛ لأن الوداع يحتاج لخمس أصابع ودموع.. بينما الحب يحتاج لنبضة واحدة وابتسامة.

ستكشف «سارة» كل شيء.. لا بد أن أسبق بخطوة.. دائمًا لا بد أن أسبق بخطوة.. أن أكون كالمستحيل أو أبعد.. سأهزمك يا «سارة».. أيتها العاهرة القبيحة.. سأسبقك وأعترف لـ«مريم» بكل شيء.. سأقول لها كل شيء، بل ربما سأصارحها بحبي لأول مرة في حياتي وأحطم سنوات الكتمان والضعف.

ذهبت إلى «حسام» مسرعًا.. ونظرت إليه حزينًا منكسرًا: الصندوق انتهى أمره وضاع يا «حسام».

قال: أنت تحركه من مكانه دائمًا.. لماذا لم تتركه في مكانه في هذه الغرفة؟ لماذا أخرجته؟

- ليس هذا وقته.. لا بد أن نتصرف بسرعة ونسبق «سارة».. لأنها ستبلغ وتنهي كل شيء. لا أريد لـ«مريم» أن تراني هكذا.

- في كل الأحوال ستعرف.. لقد كتبت كل شيء بخط يدك وكأنها اعترافات وليست مذكرات.

- هل ستزيد من يأسي؟ أنا أريد الحل.

- اعترف لها بكل شيء.

- فكرت في هذا وفكرت في الهرب أيضًا.

- هرب مرة أخرى؟ أنت هارب من الدنيا بالفعل.

- إذًا، ماذا سنفعل؟

- ابعث لها برسالة لتقابلها.. قل لها إنك تعرف من الذي قتل زوجها.

- وأصارحها بكل شيء؟

- هذا هو الحل.

- طوال عمرك وأنت ذكي.

- تلميذك.. أيها الأستاذ.

- أنت من احتجت إليَّ وأنت من خلقتني.

- التلميذ غلب أستاذه.

- هل تراني أقوى الآن؟

- أنت توأم روحي.

- حبيبي وصديقي.

- لا أستطيع أن أستغني عنك.

- مصدر قوتي.
- طوال عمري مصدر قوتك حتى في عز ضعفي أمام «مريم».
- أنا المخلوق الذي تحتاجه أنت.
- لكن أنا الأصل.
- لا توجد قوة مع احتياج إلا في الحب.. القوة تفرد وسيطرة.. القوة فردية حتى لو خدعوك بقصص الأطفال.. القوة الآن في الشر فقط.. هذا زمن «رائد الألفي».
- و«حسام» وهم؟
- «حسام» مجرد اسم في البطاقة تتعامل به مع جارك أو «مريم» أو الناس.. إنما أنا من عشق «مريم» والذي مارس الجنس مع «سارة» أيضًا.
- لكن أنا اختفيت عن العالم في مكان مجهول.. حارة بلا قيمة أخفيت نفسي فيها في مكان معزول وأنا من أخذت القرار.
- أنا الذي عزلتك.. أنا الذي جعلتك تأخذ القرار.. لو لم أحضر إلى هنا لكنت بقيت وسط الناس يضحكون عليك.
- عودتك لكي تمحو «حسام» وتنهيه؟ من تظن نفسك؟
«رائد» ساخرًا: اسأل نفسك يا.. أنا.

«يجب أن تذهب إلى الحقيقة بكل روحك»

أفلاطون

قال في شفقة: ما تخافيش مني.. أرجوكي ما تخافيش مني.. أنا زهقت من عدد الخايفين وكرهت الخوف نفسه.

***

أنا القاتل والعاشق والمكسور يا «حسام».. أنا الغربة وأنت السكن.

***

«أخرجت الصورة ووضعتها نصب عينيه وقال في صوت ذاهل وذابل وهو يموت، وكانت آخر كلماته التي صرخ بها: حـ... سـ...»!!

***

من بعيد أراقب كل شيء.. لا أستطيع أن أقتل ذبابة بيدي، ولكني أستطيع أن أكون شيطانًا أحيانًا، أو هذا ما اكتشفته في نفسي.

***

«رائد» شخصية لن تستطيع أن تتعامل معها أبدًا إن لم تعِش معها مثلي فترة طويلة.. إنه متقلب المزاج بشكل مريب ولكنه عطوف وحنون جدًّا وقلبه أبيض كما يقولون ولكنه ليس ضعيفًا.

***

جاري هو «حسام الراوي».. أنا تقريبًا صديقه الوحيد.. فهو لا يعرف في المنطقة إلا أنا، ومع الوقت حكى لي الكثير من أسراره ويعرف أيضًا امرأة تزوره في أوقات متفرقة والآن صديقه الجديد الذي يخفيه عني.

***

بدأ الحس الصحفي يعمل وبدأت أشعر أن صديقه لديه الكثير من الأسرار تمامًا كـ«سامح».. «سامح» شخصية غامضة، ظهر فجأة في المنطقة، وكل ما يخبرني عنه ذكرياته في الجامعة مع «رائد» وقصص كثيرة بطلها هو «رائد»، على الرغم من أن «رائد» هذا لم يزُره أبدًا في منزله.. هل يكون هو الذي زاره منذ أيام؟ هل هو صديقه الذي يخفيه عني؟ ولكن لماذا؟ ما السر وراءك يا «رائد»؟

***

عدت مرة أخرى لـ«رائد» في الغرفة ووجدته يغلق الصندوق بعد أن وضع شيئًا في داخله.. وأغلقه بالقفل مرة ثانية.

***

أنا لا أظن أنه ينقل الصندوق إلى «حسام».. إنه يخدعني.. أحيانًا يحتفظ به في الغرفة التي ننام بها أسفل السرير وأحيانًا ينقله إلى الغرفة المقابلة التي يغلقها دائمًا بمفتاحين ولا أحد يدخلها.. ما زلت غير متأكدة أنه ينقلها إلى «حسام» بالفعل.. أظنه ينقلها إلى الغرفة في الداخل.

«الرسالة»

الأستاذة «مريم».. بعد التحية.

احضري في هذا العنوان يوم الثلاثاء المقبل الساعة ٤ عصرًا.. شارع جامعة الدول العربية أمام كافيه كوستا.. ستجدين سيارة زرقاء عليها علامة «إكس».. فقد عرفنا قاتل زوجك، ولكن لا تبلغي الشرطة.. فإذا وجدنا أثرًا للشرطة فاعتبري الموضوع منتهيًا تمامًا.. لا تضحي بكل هذا؛ فلقد وصلتنا المعلومة أخيرًا بعد عناء للبحث عن قاتل صديقنا «محمد البحيري»..

فاعل خير.

«مريم»

لم ينقصني سوى هذه الرسالة الغامضة لتزيد من غموض حياتي في الفترة الأخيرة.. مقتل زوجي واختفاء من أحبني بصدق مرة أخرى. استشرت عددًا من الأصدقاء بخصوص هذه الرسالة ولكن بالطبع لن أقول لأبي.

تحدثت مع «يارا» لساعة على التليفون وقالت لي بحذر: لا يا «مريم».. لا تذهبي.. أنتِ لا تعرفين ماذا يريدون منك تحديدًا.

قلت لها: لكن يا «يارا» أخيرًا سأعرف السر.. لا بد أن أعرف من الذي فعل هذا.

- خطر يا «مريم».. خطر.

- سأقابله في الشارع ولن أدخل إلى عمارة أو مكان آخر لكي أكون في أمان بين الناس.. لا تقلقي يا عزيزتي.

- أنا قلقة يا «مريم» يا حبيبتي.

- الله معنا.

ذهبتُ إلى العنوان في الوقت المحدد.. وجدت السيارة تقف على الصف الآخر وإشارات الانتظار تعمل.. عبرت الطريق إلى الطرف الآخر.

عبرت الطريق بعد عدة محاولات يائسة كعادة الطرق والمرور المصري الغريب، الذي يشبه الألعاب، هذا إن كنا مثل الألعاب لنا

عدة محاولات قبل أن نموت تمامًا!

الحياة الآن كما الشبح، ولكن إذا كنت أنت الذي تم اصطيادك بواسطة الحياة فأنت الصياد نفسه في الوقت نفسه! أشعر أني مغلقة العينين وأضرب بعصاي حقيبة مليئة بالحلوى.. ربما تكون حلوى وربما تكون نهايتي.. لم أعد أدري حقًّا؛ فحياتي مليئة بالألغاز.

أراه من بعيد وكأني أعرفه.. هل سيكون طريقي إلى قاتل «البحيري»؟

هل سيكون اليوم نهاية قلقي وحيرتي؟

اقتربت أكثر من السيارة كمن ترقص على الحبال وتضع قدمًا واحدة وتخاف أن تسقط.. أسير بحذر وباندفاع في الوقت نفسه.. إنه شعور مضطرب.

قلت له: لقد جئت في موعدنا المحدد.

قال وهو ينظر أمامه ولا يلتفت إليَّ من زجاج السيارة: أهلًا «مريم».

قلت في عجب بالغ فاغرة فاهي: «حسام»؟

«سارة»

أجلس وحدي في غرفة انتظار واسعة في صالة استقبال المستشفى.. مستشفى الأمراض النفسية والعصبية.. بعد انتهاء التحقيقات وإنقاذ «مريم» من يد «حسام» الذي كاد يبطش بها في حالة جنونية.. لأول مرة أقابل «مريم».. كانت تزور «حسام» في غرفته.. «حسام» أو «رائد» كما يحب أن يسمي نفسه.. الآن عرفنا كل شيء.. ولكني كنت أريد أن أعرف منها تفاصيل اللحظات الأخيرة قبل القبض على «حسام» ثم تحويله للمستشفى.

قلت لها - وقد كانت جميلة فعلًا كما كان يحكي لي «رائد» أو «حسام» اسمه الحقيقي -: أنتِ «مريم»؟ كيف حالك؟

قالت في خجل: أنتِ «سارة» أكيد.. أنا عرفت عنك كل شيء في المحضر، والحمد لله أن الشرطة أنقذتني والجيران قد كسروا الباب علينا بعدما صرخت.

قلتُ: ألف سلامة عليكِ.. من المؤكد أن هذا المجنون قد آذاكِ.

قالت في حزن: لا أريد أن أظلمه أكثر من هذا.. إنه مريض، وهذا ما تأكدت منه.. كفى ما لاقاه من ظلم طوال حياته.

- لكن ما حكاية «رائد»؟ لقد كان معي دائمًا باسم «رائد» بينما عرفت أن جاره يعرفه باسمه «حسام».

- اسمه «حسام»، وهذا هو اسمه الحقيقي وحتى في سجلات

الكلية.. «حسام الراوي».. لا أعرف ما قصة «رائد».. كان يكتب شعرًا في الجامعة أحيانًا ويوقع باسم «رائد».. وحينما ضرب «محمد البحيري» كان يقول: أنا «رائد» من سيعلمك الأدب. لكن هذه حكاية قديمة ولم يهتم بها أحد حينها.. ولكن اتضح أن الموضوع أكبر من هذا كما قال الطبيب.

- لكن في البداية احكي لي ماذا حدث منذ أن قابلك.

- حسنًا سأطمئن عليه أولًا وأحكي لك كل شيء.

- تطمئنين عليه؟ بعد كل ما فعله معك؟ قلبك كبير فعلًا يا «مريم».. الآن عرفت لماذا كان يحبك بجنون.

قالت في دهشة: يحبني؟ هل تكلم معكِ عني؟ كيف عرفتِ؟ آه من المؤكد من الصندوق.. أليس كذلك؟

- لا ليس الصندوق فقط، بل شاهدت صورتك أيضًا.

- أكيد صورة الرحلة.

قلت في غيرة وحزن أنثوي: كان يمسك بصورتك وكان يغني أغنية لـ«درويش».

كأنها قد ذهبت في عالم آخر.. لم أشعر بها بجواري.. لقد دخلت في عالم الذكريات وكأنها تهمس: «تكبر تكبر. فمهما يكن من جفاك ستبقى بعيني ولحمي ملاك»

ثم قالت: يااااا.. كأن هذا اليوم كان بالأمس.. خسارة يا «حسام».. تغيرت كثيرًا.

لقد كان يغني معي هذه الأغنية في الرحلة.

ثم دخل علينا الدكتور «سمير حمدان»، وهو المختص والمتابع لحالة «حسام»، وقال لنا: «تفضلا معي».

«مريم»

كان اليوم فعلًا أغرب من الخيال.. بعدما ركبت السيارة مع «حسام» وفوجئت به يركب السيارة في المكان والموعد المحددين.. قلت له: أنت يا «حسام»؟ أنت من أرسل لي الرسالة؟ لماذا لم تقُل لي ما تريد حينما كنت معي منذ وقت قريب وتركتني ورحلت؟

- لم تأتِ الفرصة.. اعذريني.

- فرصة؟ لم تأتِ فرصة لكي تحكي لي شيئًا بهذه الأهمية في حياتي؟ لقد هربت يومها وقلت إنك لن تظهر مرة ثانية، ما الذي جعلك تراجع نفسك؟

- ضميري.. ضميري يا «مريم».

- ماذا هناك يا «حسام»؟ ما الذي يحدث؟ ومن الذي فعل هذا؟

- سأقول لك كل شيء.. دعينا نشرب الشاي في بيتي معًا وأخبرك بكل التفاصيل.

ترددت فترة حتى قال: ألا تثقين فيَّ؟

- لا أقصد يا «حسام»، ولكن لماذا لا نجلس هنا ونشرب في أي مكان؟

- لا تقلقي، وعلى الأقل ستعرفين المكان الذي كنت أعيش فيه وأختفي كل هذه السنوات.

- حسنًا.. لا مانع، ولكن لا أريد أن أتأخر.

دخلنا إلى مناطق لم أكن تقريبًا أتخيل أنها موجودة.. حارة شعبية خلف مقابر يسكنها الناس.. جدران تعج بالفقر والحاجة واليأس.. أطفال على وجوههم يأس الكهول.. يسكنون في عشش من الصفيح.. لا أعرف كيف كان «حسام» يعيش في هذا المكان وهو من أسرة من الطبقة المتوسطة.. هذا إن كانت هذه الطبقة ما زالت موجودة بالفعل.. ولكن كيف يعيش «حسام» في هذا الفقر المدقع؟ هل فعلًا اضطره الفقر إلى الهروب لهذه الدرجة؟ أعرف أنه ترك عمله وهرب من الجميع ولكنني ظننته هرب إلى مكان إنساني على الأقل.

ترك السيارة أمام العمارة المتهالكة وقال لي في ثقة: تفضلي يا «مريم».

- لا أصدق يا «حسام».. هل عشت هنا كل هذه الفترة؟
- هناك ظروف يضطر فيها الإنسان لفعل أي شيء.
- لهذه الدرجة هزمك اليأس؟

قال باسمًا: اليأس؟ امممم حسنًا.

صعدنا على الدرج الذي يكاد ينخلع من مكانه وفتح باب شقته وخرج جار له يقول وهو ينظر إليَّ كمن يعمل في محل ألماس ويضع العدسة: كيف حالك يا «حسام»؟

قال: الحمد لله.. تصبح على خير.

كان يعامله في جفاء ونفور واضحين، لا أعرف سببهما.. ثم دخلنا إلى الشقة وفتح الأنوار.. كانت الشقة - على الرغم من صغر مساحتها

- منظمة إلى أبعد الحدود.. مليئة بالكتب تقريبًا في كل المجالات.. تستطيع أن تقول إن نصف مساحة الشقة ذهبت للكتب والمراجع. كانت في الشقة غرفتان واسعتان، إحداهما مغلقة بقفل كبير ويضع عليها علامة كأنها «ممنوع الدخول»، والأخرى غرفة نومه.. جلست عندما أشار لي أن أجلس وقلت له: احكِ لي يا «حسام» كل شيء.. أريد أن أعرف كل ما تعرفه عن الموضوع، أرجوك.

قال فجأة باكيًا كالمجنون: أنا آسف يا «مريم».. آسف.. هذا الذنب سيبقى طوال العمر في رقبتي لا أعرف كيف سأكفِّر عنه.

كأن الأرض توقفت عن الدوران فجأة.. كان ما قاله هو جواز سفري إلى عالم الصدمة والدهشة معًا.. هل «حسام» هو من قتل زوجي؟ لا يمكن.

ظلت عيناي لفترة تجولان في محاجرهما وأنا مترددة ماذا أقول.. كيف تنطق أمام حالة تجبرك على الخرس والاستسلام؟

قلت له: أ... أ...

ما زالت الحروف لا تطاوعني.. لا يمكن أن يكون ما قاله صحيحًا.. من المستحيل أن يقتل.. «حسام» يقتل؟

قلت محاولةً تمالُك نفسي ودموعي تتساقط ببرود على وجهي غير المعبِّر كـ«خيال المآتة»: احكِ يا «حسام».. احكِ بالتفصيل.

حكى لي كل شيء.. حكى لي عن «سالم» وكيف عاش مع أخته وكيف عاش في هذه الحارة.. حكى لي عن هروبه من العالم بسببي.. لقد

اعترف لأول مرة أني كنت سبب هروبه.. وحكى لي عن خطته التي وضعها لقتل «محمد البحيري» وأنا مذهولة تمامًا أكاد أُجن.. كأنه يحكي لي قصة فيلم مجنون وليست قصة «حسام الراوي»، الذي كنا نشفق عليه، حتى إني شككتُ يومًا ما في أني أحببته بالفعل.

لقد كادت تتحول شفقتي عليه إلى حب.. نعم كان غريب الأطوار وكان يحدث نفسه أحيانًا ويهمس همسًا غير مفهوم أمامنا.. ولكننا كنا نتقبله على أي حال.. كان صديقي وللصداقة أحكام.. بالتسامح والحب والغفران.

نعم، كان مسخًا ولكني قلت إن الجمال ليس كل شيء.. كنت أخاطب فيه روحه وعقله.. ولكنني لم أجد أبدًا في أي يوم من الأيام أي شيء يدلني على أنه قد يصبح قاتلًا.. تلك الرحمة التي رأيتُها في قلبه أيام الجامعة وحبه لـ«جبران» وعشقه لـ«درويش» ومعلقات «الخيام».. كيف تجتمع كل الفضائل لتصنع أشهى وجبات الجحيم؟

قال فجأة وهو يصرخ باكيًا مرة أخرى أمام دموعي ويركع أمام ركبتيَّ كأنه يقدم قرابين: اعذريني.. أنا لم أقتله.. لقد قتله «رائد».. إنه مجنون يا «مريم».

ظل يبكي ويتشنج حتى تغير صوته بطريقة لم أعهدها.. لو كنا في أحد أفلام الرعب لقلت إنه أحد أصوات الجن عندما يتغير صوت البطل فجأة.. قالها وتعجبت وأنا أحاول السيطرة على الموقف قائلةً في دهشة: «رائد»؟ مَن «رائد»؟ ألم تقُل لي الآن إنك من قتلته؟

هل ستمثِّل عليَّ مرة أخرى بـ«رائد» مثل أيام الجامعة حينما كنت تقول: نادوني باسم «رائد»؟

قال: نعم، أنا من قتله يا «مريم».. «رائد».. «رائد» الذي أحبك طوال عمره وكتم في قلبه.. «رائد» الذي عاش من أجلك عمره وغاب من أجلك عن عمره كله.

بدأت أخاف وأرجع للخلف قليلًا وهو يقترب مني بعنف ودموعه تسيل بغزارة شلال..

قلت: لا بد أن أذهب الآن.

حاولت الانصراف سريعًا ولكنه توسل ألَّا أفعل وألَّا أتركه في هذه الحالة.. حاولت الهروب وصرخت فيه: أنت قاتل.. أنت مسخ.. مسخ من الداخل والخارج.. أنت مسخ جبان.

خرجت مني هذه الكلمة لتغيِّر كل شيء.. كانت الكلمة الفارقة هي كلمة «مسخ» على الرغم من أنه يسمعها في كل مكان وكانت الجامعة بكاملها تعرف لقبه.. ولكن أنا الوحيدة التي لم تكن تطلق عليه هذا اللقب أمامه.. لم تحدث ولو مرة واحدة.

نظر إليَّ نظرة غريبة وبدأ يدور حولي ويحدث نفسه قائلًا: إنها تقول لك «مسخ»؟ «مريم» تقولها لك لأول مرة.. ماذا ستفعل؟ قوة القوة ليست ضعفًا.. قوة القوة امتلاك..

أمسكني فجأة من شعري وكمم فمي وأنا أحاول الصراخ.. أدخلني غرفته البيضاء بعد أن فتح قفلها بمفتاحه.. وقال لي: مسخ؟ أنا

مسخ؟ «رائد» الآن سيعرِّفك ماذا يعني المسخ.
بكيت حتى جفت عيناي وأنا أحاول أن أتخيل أني في كابوس.. لا يمكن أن يكون هذا واقعًا أبدًا.. لا أحد يعرف مكاني.. حتى «يارا» قلت لها إني لن أذهب في أي مكان ولكنه «حسام».. كيف لا أثق في «حسام»؟
أغلق الباب وجلس بجانبي في الغرفة البيضاء.. غرفة الجنون الكامل.. مليئة بالصور والكلمات.. وجدت صورة كبيرة مرسومة على يمين الجدار، وكأنها برواز، كُتب عليها «أسامة» ورُسم حوله كمٌّ هائلٌ من الأموال.. من هذا الشخص؟ وصورة أخرى في برواز ذهبي لـ«البحيري» في المنتصف.
جلست وأنا أرتعش من الخوف.. الخوف يسري في أوصالي بلا أدرينالين كافٍ لتشجيعي على أي شيء.. لقد استسلمت تمامًا أمام نظراته ومحاولات شمه لجسدي بطريقة جنونية.. وقال: هل تعرفين كم أحببتك يا «مريم»؟ سنوات وسنوات.. كنت أخاف أن أظلمك معي وحان الآن وقت الاعتراف.. لن أخسر شيئًا.. تعرفين عن طريقي أفضل من معرفتك عن طريق «سارة».
- «سارة»؟ من «سارة» يا «حسام»؟
- هي مَن معها كل الأدلة ضدي.. خطفَتْ كل مذكراتي وكتاباتي بخط يدي.. لن أهرب أكثر من هذا.
- إذًا فهي ليست مسألة ضمير.. لقد قلت لي فقط لأنك خسرت كل

شيء كما تقول.
قال ضاحكًا كخنزير بري: ضمير؟! هههه.. تعجبني هذه الكلمة.. تذكِّرني بنفسي قديمًا.. تذكِّرني بـ«حسام» الرقيق الضعيف.. أليس هكذا يا «حسام»؟
كان يكلم نفسه كالمجنون.. يتحدث مع «حسام» ويقول إنه «رائد» وأحيانًا يتحدث مع «رائد» ويقول إنه «حسام».. وكلما فعل هذا زاد خوفي ورعبي منه ومحاولة الوصول لأي فرصة للهروب من هذا المكان.
أغلق الباب بالمفتاح وطلب مني طلبًا غريبًا جدًّا.. طلب مني أن أربت له على شعره وهو نائم على رجلي.. اقترب مني وهو يلهث ووضع رأسه على ساقي وأنا أشعر بدموعه المتزايدة عليها وبدأت أربت له على شعره.. إنه مريض.. مريض بشكل كامل وفي حالة لا يمكن السكوت عليها.
كان يجلس كالطفل الصغير الباكي وكنت أشعر بالعجز في هذه اللحظة.. فلا أستطيع أن أصرخ ولا أعيش رومانسية اللحظة.. فكيف أعيشها مع شخص لا أعرفه تقريبًا.. ليس هذا هو «حسام».. ليس هذا هو «حسام» الذي أعرفه أبدًا.. إنه مسخ جديد.. تعودت على قبح وجه «حسام» ولكني لم أتعود على أن يكون مسخًا روحيًّا.. قال لي فجأة: هل تعرفين ما أكثر بيت شعر أحبه؟
قلت وصوتي لا يكاد يظهر: ما هو يا.. «رائد»؟

نعم.. لقد قلت له «رائد».. بدأت أتأقلم مع الجنون.. لأول مرة أنادي «حسام» بهذا الاسم ولكني أكمل سلسلة العبث المتواصل..
قال: بيت شعر رائع لشاعر اسمه مظفر النواب يقول:
أيقتلك البرد؟
أنا يقتلني نصف الدفء ونصف الموقف أكثر.
هذا ما أشعره يا «مريم».. أنا يقتلني نصف الدفء ونصف الموقف أكثر.
ثم قال مستطردًا فجأة وفي حركة مفاجئة: هل تذكرين هذه يا «مريم»؟ ورقة الشوكولاتة.. أعطيتِني إياها في الجامعة.. أجمل ذكرى أحتفظ بها.. كنت أحتفظ بها خارج الصندوق.. كانت دائمًا معي يا حبيبتي.
ثم قام ووضع أسطوانة فجأة وانطلقت نغمات أغنية كنت أعرفها هي أغنية Radiohead – creep.
قال لي إنه يعشق هذه الأغنية وإنها معبِّرة عن حياته بشكل كامل.. وإن من أحلامه طوال عمره أن يرقص معي على هذه الأغنية.. لم أجد هذه الأغنية مناسبة للرقص على الإطلاق ولكنه ألحَّ عليَّ وأنا مستسلمة وأخاف منه.. الخوف تملَّكني كأني أصبحت جنيَّة في مصباحه ولكني لا أستطيع أن أحقق أمنية حتى لنفسي.. حتى أمنية الهروب!
اختطف ذراعي وهو في غاية التأثر وبدأ يدور بي والأغنية تقول:

When you were here before

Couldn’t look you in the eye

You’re just like an angel

Your skin makes me cry

ثم بدا وكأنه ذئب يدخل في مرحلة عويل وهو يغني الجزء الذي يحبه وهو يقول مع الأغنية ويردد:

But I’m a creep

I’m a weirdo

What the hell am I doing here

I don’t belong here

رقصنا مرتين على الأغنية حتى طلبت منه بعض الماء.. أحاول أن أجد أي طريقة للهرب، على الرغم من أنه يغلق الغرفة ويغلق الشقة بالمفتاح أيضًا.. أخاف أن أصرخ فيؤذيني.. ولكني أحاول أن أشغله في شيء لأستطيع الهرب.

خرج ليحضر لي كوبًا من الماء وأغلق الباب خلفه.. وعندما عاد وفتحه اندفعت مسرعة.. ضربت الباب بقدمي بأقوى ما عندي.. لم يعد للخوف معنى.. سأحطم كل القيود.. لو عشت في خوفي ربما سأظل هنا للأبد.. لا بد أن أجد حلًّا للخروج من هذا السجن.. سجن مع مسخ!

سقط على الأرض.. حاولت الوصول للباب، لكنه مغلق.. قام سريعًا

وسحبني من قدمي ولكني تمسكت بالباب وظللت ادق عليه بأقوى ما أملك.. كانت أظافره تنهش في ساقي وأنا أصرخ.. فتح جاره باب الشقة وسمعته يصرخ: ما الذي يحدث يا «حسام»؟

سمعت أصواتًا بالخارج، أظنها للجيران وقد تجمعوا من كل شقق العمارة.. لكن «حسام» كاد يفترسني في هذه اللحظة بعينيه الحمراوين الداميتين.. بدأت ساقي تنزف من أظافره الناشبة فيها.. صرخ وقال: لا يا «مريم».. لا يا «مريم».

ظل يلكمني في وجهي حتى فقدت الوعي.. ثم وجدت نفسي في المستشفى.. وقالوا لي بعدها إنه ظل يصرخ كالمجنون وكسر الجيران الباب وأنقذوني وتم إبلاغ الشرطة وتحرير المحضر.. ثم كانت طامته الكبرى عندما ظهرت «سارة» والصندوق.. كانت الاتهامات خطيرة وتم تحويله إلى المستشفى للكشف عن سلامة قواه العقلية؛ لأنه كان خارج السيطرة تمامًا في هذه الفترة.. لأول مرة أرى «حسام» بهذه الصورة.. أو «رائد» الذي كان يعشقني وأنا لا أعرف.. لم أعد أدري من الذي اعترف لي بحبه في شقته وهو يعذبني ومن الذي كاد يعترف لي بحبه في بيتي وهو يعزيني.. من منهما «رائد» ومن منهما «حسام»!!

«دكتور سمير حمدان»

حالة معقدة.. «حسام الراوي» في عنبره الآن بعد أن أخذ حقنته وهدأ قليلًا.. قرأتُ ما في الصندوق الذي أخذت منه الشرطة الاعترافات بخط يده.. تريد الشرطة أن تتأكد هل مرضه مسرحية أم أنه فعلًا مريض.

جلست معي «مريم» تحاول أن تفهم ما يحدث.. وجهها عليه بعض الكدمات من أثر لكمات «حسام»، لكنها تحاول أن تتماسك وتعرف مني كل شيء.. إنها تريد أن تطمئن عليه بعد خروجها من المستشفى وعلاجها، على الرغم من كل ما فعله بها وعلى الرغم من أنه اعترف بقتله زوجها يوم فرحهما.

قالت لي في حزن: لماذا يحدث معه كل هذا يا دكتور؟ هل قرأت ما في الصندوق؟ هل قرأت مذكراته؟

- نعم يا «مريم».. كان لا بد من قراءتها.

- هل الحالة صعبة للغاية؟

- لكي أشرح لكِ الموضوع ببساطة، «حسام» كان يعيش بشخصيتين، كل شخصية مختلفة عن الأخرى..

- «حسام» و«رائد».

- هذه النظرية بها عدة نظريات، بل إن البعض ينكر أن تكون الحالة بهذا الشكل موجودة أصلًا.. حالة «حسام» معقدة وليست

سهلة، ولا بد من التأكد.. وهذا سيأخذ وقتًا وجلسات متعددة.. لكن من خلال جلستي معه لاحظت أن شخصية «رائد» أصبحت متملكة منه تمامًا.. الحالة هي اضطراب الشخصية متعددة الأوجه، وهذا نوع من أنواع الهيستيريا الانشقاقية.

- نعم.. لقد ردد اسم «رائد» أكثر من مرة في آخر لقاء.. كأنه لم يعد «حسام» أصلًا.

- هذا الاسم تكرر بشكل دائم في الصندوق وفي عشرات الصفحات.

- كان يحدِّث نفسه أحيانًا في أيام الجامعة وكان يقول لنا أن نلقبه بـ«رائد» ولكنه كان محط سخرية، ولم يكن أحد يتخيل أن يصل الأمر إلى هذا الحد.

- للأسف، الحالة أصبحت أكثر صعوبة وقبحه كان العامل الأبرز فيما حدث له.. حاول أن يختفي عن العالم بعد الجامعة وبعد فترة عمل قصيرة ثم انزوى في حارة شعبية وحيدًا لكي لا يعرفه أحد.. ويجلس مع نفسه أو مع «رائد» فقط.

قالت في اهتمام بالغ: و«سارة» يا دكتور؟ كيف كان يعيش مع «سارة»؟

- «سارة» لغز كبير في حياته.. أظن من كتابته عنها أنه كان يحاول أن يهرب بها إلى العالم الذي يتمناه.. يريد الهروب لعالم السيطرة.. شخصية «رائد» تريد أن تمحو شخصية «حسام» بقوتها وتتمرد على الضعف.

- لكن «حسام» كان خجولًا في الجامعة.
- أحيانًا.. لكن «رائد» خارج الجامعة، وحسب ما في مذكراته، كان في حياة أخرى تمامًا.. كان في حياة صاخبة ومختلفة.. أما داخل الجامعة فقد كان كالملاك إلا في بعض الحالات عندما تحدث المشاجرات مع «البحيري»، وكما قُلتِ إنه يظهر بشكل مختلف تمامًا.
- إذًا، فـ«رائد» شخصية أقوى يهرب بها من ضعفه؟
- سؤال جميل.. فعلًا هذا ما يحدث.. خلق شخصية «رائد» للدفاع عن «حسام».. كان يحتاج «رائد» بشكل واضح لإنقاذه.
- و«رائد» هو من قتل بالطبع؟
- عملية القتل هي أكثر الأشياء تعقيدًا في كل ما كتب.
- كيف؟
- لقد كتب في مذكراته «قتلتهم جميعًا».. في الحقيقة لقد قتل «البحيري» فقط.. وفهمت من الصندوق أن «أسامة» كان مجرد حلم.
- كنت سأسألك عنه بالفعل.. إنه يضع صورته في غرفته التي يغلقها بالقفل في برواز كبير وكان يظهر أنه رسمها بيده.
- لقد رسمها بالفعل.. ونفس اللوحة في الصندوق بشكل مصغر على دفتر كل شخص كتب عنه.
- ولماذا رسمها؟
- «أسامة» صاحب المال والشركات شخصية كان لا بد أن يخلقها في

خياله لكي يكمل أسباب هروبه.

- لا أفهم.

- كما كتب هو أنه كان يهرب منكِ ولكنه يحبكِ الحب المطلق، كان يكتب دائمًا: «أحبها الحب المطلق.. حبًّا دون أسباب.. حبًّا غير مسبب».

- وما علاقة هذا بـ«أسامة»؟

- هذه الشخصية بالنسبة له أحد الأسباب، إنما هو المطلق.. هو الحب المطلق.

- أسباب لأي شيء؟

- كان يقنع نفسه أنه «أسامة»، يحبك فقط لحاجته إلى زوجة وأم لابنه.. لقد أقنع نفسه أنه شخصية حقيقية تنافسه في حبك.. لقد كتب أنه زاره في مكتبه وهدده.

قالت: يا!! ألهذه الدرجة؟ أنا لم أعرف أحدًا غير «البحيري».. من أين له بهذا الشك؟

- الفكرة ليست في الشك.. لقد كان يخلق لنفسه مبررات غير قبحه لكي يهرب منك ويبقى كأنه ملاكك الحارس من بعيد ينقذك منهم.

- «أسامة» إذًا بالنسبة له كان الغني الذي يريد التقرب مني بأمواله ومن أجل حاجة ما.. حب مسبب إذًا؟

- تمامًا.. كان يرى أن «أسامة» هو الحاجة و«البحيري» هو الرغبة.. كلها أسباب.. وكلما زادت الأسباب لحبك زاد التعقيد ووجد لنفسه

سببًا للهروب.

- كان يحاول أن يدمر كل الأسباب للحب؛ لأن الحب من دون سبب هو الحب الحقيقي..

- بالفعل يا «مريم».. وكان يكتب بخط كبير في سطور كثيرة: «الرغبة - المال».. أنا الحب الذي سيدمرهما جميعا.. أنا القدر.. وأنا الصدفة.

- لكن «سارة» يا دكتور، مرة أخرى، كيف كان يعيش معها وهو يحبني حبًّا مطلقًا؟

- «سارة» كانت نزعته للسيطرة.. أو دافعًا للقوة والقتل والحياة الصاخبة التي يريد أن يكملها بشخصية «رائد».. وهنا تعارُض الشخصيتين وصدامهما ومحاولة كل منهما السيطرة على الأخرى.. «رائد» حاول عن طريق «سارة» إثبات أنه الأقوى.

- وشخصية «حسام».. لماذا لم تقتل بدلًا من «رائد»؟

- شخصية «حسام» لا تستطيع أن تعيش إلا في الهروب فقط.. أما شخصية «رائد» فقد صدمته بأنها ستسيطر عليه وتصبح الأقوى..

- كل هذا الصراع داخل إنسان واحد؟

- النفس البشرية معقدة يا «مريم» وليست سهلة كما يتخيل بعض الناس.

- إذًا.. فهو لم يحب «سارة»؟

قلت مبتسمًا وأنا ألاحظ غيرتها: ألاحظ أن «سارة» تشغل بالك جدًّا.

قالت في خجل: لا لا يا دكتور، ولكني أريد أن أفهم بشكل كامل.
- لا.. إنه لم يحب «سارة» وكتب أنها مجرد نزوة.. وفي الحقيقة هي مجرد وسيلة لمساعدته على السيطرة.
- أشعر أني لم أعرفه أبدًا طوال حياتي.
- كل هذه المعلومات استنتاجات وسنصل إلى أكثر من هذا مع قراءة الصندوق مرة ثانية وثالثة ومع تكرار الجلسات مع «حسام».
- وكيف تأقلمت معه «سارة» وهو مريض؟
- لقد سألنا «سارة» بالفعل وقالت إنها كانت تتحمَّل جنونه ودخوله غرفته وإغلاقها عليه بالساعات ويظل يكتب ويكلِّم نفسه أحيانًا كما قالت، وأحيانًا كان يقول لها: اخرجي الآن؛ لأن «حسام» قادم، أو لأنه ذاهب لزيارة «حسام».
ولو سألته عن الصندوق يقول لها: لقد نقلته عند «حسام» اليوم. ولكن في الحقيقة كان ينقله إلى غرفته ويغلق الباب عليه، وعندما يُخرجه يقول لها إنه أتى به من عند «حسام».. وكان يحدِّث جاره على أنه هو «حسام».. لقد كان يتحدث مع من حوله كلٌّ حسب شخصيته.
قالت في غضب: هذا الصحفي جبان يا دكتور.. كان يعرف كل شيء وقال إنه جلس معه كثيرًا وكان يتعجب من حالته وكل ما شغله أن يكتب تحقيقًا عن الحالة.. لقد استغله فقط للوصول لقصة شائقة يكتب عنها ولم يفكر في مساعدته.

- لقد قال بنفسه في التحقيق إن «حسام» كان شخصية مختلفة وإنه كان يسمع صوته يبكي ليلًا أحيانًا أو يضرب نفسه على حد قوله.. وأكد أنه في إحدى المرات وجد وجهه مليئًا بالكدمات والصندوق مقلوبًا على الأرض.

- هذا الصندوق حكاية غريبة أيضًا.

- لقد ارتبط به بسببك.. وسبب الإصابة التي في يده كانت منذ أن وقع الصندوق فوقه ومحتويات «سندرة» البيت عندما كان يبحث عن الصندوق أول مرة لكي يجمع فيه أوراقه.

- هل معك كل ورق الصندوق؟

- صورة فقط، والنيابة معها الأصل.. وطبعًا غير مسموح لي أن أعطي نسخة منه لأنه عهدة وتقدَّر بآلاف الأوراق.. لكن يا «مريم»...

- ماذا؟

- هناك شيء واحد يخصك في الصندوق وتستطيعين قراءته.

قالت: شيء يخصني؟

- اقرئي هذه الورقة وعديني أن تتمالكي نفسك.

قرأت «مريم» الورقة وفي عينيها غيوم تنذر بمطر قادم وكان فيها:

لقد قتلتهم.. لقد قتلتهم جميعًا.. كلهم يستحقون القتل..

«مريم».. «مريم».. «مريم».. إنسية وجنية.. أرضية وكونية.. نارية وفردوسية..

لم تستيقظ بعدُ من غفوتها الصباحية، هكذا قال السكين.. امممم..

لا يسيء أحدكم الظن بي، فأنا لست بقاتل.. ولكن هكذا قال السكين.
أنا لست بعاشق يا «مريم» ولكن هكذا قال القلب..
لماذا لا تتحركين يا «مريم»؟
من قتلك يا «مريم» غير جنونك وجمالك؟ ربما تسألين لماذا شددت وثاقك بكل هذه الحبال..
ذوقي العذاب يا «مريم».. ذوقيه، إنكِ أنتِ العزيزة الجميلة الكريمة.
هذا شيطان فاوست يا «مريم» يحدثني أن أبيع روحي مقابل عينيك..
فكرتُ كثيرًا يا حبيبتي في عرضه ولكنني اخترت طريق الدماء..
لن أخسر روحي لأن عينيك مخادعتان، وكما قلتِ يومًا إنك لست من طينتي الرومانسية إنك «رومانطيقية»
هل سمعتم عن الواقعية السحرية؟ إنه تعبير أدبي لم أفهمه إلا في عينَي «مريم».. عرفت كيف تكون الواقعية سحرية على الرغم من إحساسي بتناقض الكلمتين.
سأصرخ بعدك يا «مريم» وأشق الكون حتى إن مِتِّ يا جميلتي ستبقين للأبد خط العمر في كف المستحيل.. وسيبقى وجهك إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس ولا القمر.. وستبقى عيناك اقتباسًا أبديًّا من قصة خلود.
قالت في خضم حزنها وهي تحاول الخروج منه بمعجزة ولا تستطيع:

«حسام» فكَّر في قتلي؟ هل كان سيقتلني؟
ظلت تتمتم بالكلام وهي تبكي ولا تتخيل أن «حسام» صديقها، وربما كان حبيبها، يفكر في التخلص منها من فرط حبه.. هل خلق الجنونُ الحبَّ أم أن الحبَّ هو من خلق الجنونَ في هذا العالم؟ كيف يصل إنسان إلى هذه الدرجة من الشر بسبب العشق؟
لكني حاولت أن أهدِّئها فقلت لها: انظري لهذه أيضًا.. هذه ورقة كان قد كتبها وكتب عليها «يوم اللوحة».
قالت في أنين عاشقة: ياااا؟! كان من أجمل أيام حياتي.. أتذكر نظرته حتى الآن وهو يهيم في اللوحة التي رسمها لي الرسام.
- اقرئيها يا «مريم».
وبدأت «مريم» في قراءة الورقة:
اليوم كان من أجمل أيام حياتي.. كانت «مريم» معي في الرحلة، ما جعلها رحلة عمر وليست مجرد رحلة لطلبة في الجامعة..
كنا نسير معًا حتى نادى أحد الرسامين علينا وقال: هل تحبان أن أرسمكما؟
هتفت «مريم» في حماس وقالت لي: فكرة ممتازة.. هيا يا «حسام». كنت أعرف في نظرة الرسام أنه متردد.. هو كان يجامل فقط بكلمة «أرسمكما»؛ فهو لن يرسمني بل يقصد أن يرسمها فقط.. كيف سيرسم مسخًا؟ ستكون اللوحة بوجهي مجرد تشويه لأعماله.. فقلت لها: اذهبي أنتِ يا «مريم».. أنا سأقف هنا لأشاهد فقط..

أحب أن أشاهد الرسم.
وقفت وهي سعيدة وقد جعلها الرسام في الوضع المناسب وبدأ في لوحته.
كم أنت محظوظ أيها الرسام.. ريشتك تخط أبهى معاني الحسن وترانيم الجنة.
كم أنت محظوظ لتغزل بريشتك على لوحتك «بسملة» وبحار شعر عاتية تأكل الأخضر واليابس في قلبي.
كم هي محظوظة هذه اللوحة لتسجن نفسها بين جدران حمراء من شفتَي «مريم» وحمرة خجلها.
عقلي أصبح مسرحًا لراقصات باليه ودمائي تصرخ وتصفق لهن حين أرى اللوحة أمامي..
أنا المعزول عن الحياة بحكم الليل وحكم الكلمة..
أنا المنفي في قارورة عطر «مريم» تخدرني كما تخدر كل الثائر في نفسي ولا يسمعني إلا الله..
قوافل دمي يا «مريم» الآن محملة بالإحساس ولغة الطيب وحضور المتيم..
أريد أن أضمك وأبارك مفتاح حياتي من ماء عينيك..
لتصيري عصايَ السحرية وأمارس كل طقوس العشق وأكثر..
صدقيني يا «مريم».. مهما أحبك.. لن يحبك مثلي..
لن يوقف التاريخ مثلي أمام عينيك أو يُعبد فيك الأقدس..

أنا لا أخشى منازلة الفرسان بين رموشك لأني متمرد على كل عالم غير عالمك.. فهل أنتِ مستعدة لتمردي العاشق؟

ظللتُ أنظر للوحة حتى بعد أن انتهت وقال لي الرسام: أين ذهبت بخيالك؟ لقد انتهينا.. ما رأيك؟

قلت: ممتاز.. أجمل لوحة رسمتها في حياتك.

تعجَّب الرسام من كلماتي وشعرت «مريم» بالخجل ثم قالت: شكرًا يا «حسام».. وشكرًا لك على اللوحة الجميلة يا أستاذ..

قال الرسام: «طارق».. اسمي «طارق».

قالت: شكرًا يا «طارق».

كانت أجمل لوحة رأيتها في حياتي.. كانت أجمل من لوحات بيكاسو أو سريالية سلفادور دالي..

كان صدري كلوحة لفلاديمير كوش ينشق صدري فتخرج منه «مريم»!

أحبك يا «مريم».. قبل وجود الحب.. وبعد الحب..

أحبك كما ينبغي للحب أن يكون في خيال العالم وحلم كيوبيد..

أحبك بقلب متيم وعينين مزهرتين ومشاعر أبدية..

لن أقبِّل يديك فقط من أجل الحب.. بل سأقبل يد الحب لأنه جعلك في طريقي ورحلة عمري.

قالت وهي تضع الورقة جانبًا ولا تتمالك نفسها: يا الله! لا أستطيع أن أشرح ما أشعر به الآن.. أنا مرهقة جدًّا.. لا أعرف هل أفرح أم

أبكي أم أصرخ على مقتل زوجي.. داخلي مائة إحساس متناقض.

خرجت من المكتب بعد أن صافحتني وعيناها تفيضان بالدموع.. لقد تعرضت لتجربة قاسية.. مَن فكَّر في قتلها في ورقة أعرب عن عشقه الجنوني في ورقة أخرى.. إنه «حسام».. «حسام» وتناقضه الغريب.. «حسام» الذي لا تتوقع منه أي شيء ولا تستطيع أن تعرف خطوته المقبلة.. إنه «حسام» الذي زلزل عرش الحب بقلبه وشعوره تجاه «مريم» وحبه الملائكي.

لو كان ابن حزم يعيش بيننا حتى الآن لأضاف حالة «حسام» في الحب لكتابه «طوق الحمامة».. إنه من العلامات الجنونية الجديدة؛ فقد تحدث ابن حزم عن التغير من أجل الحب فعلًا، ولكن هل لهذه الدرجة؟ قال ابن حزم عن علامات الحب:

«ومنها: أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه ممَّا كان ممتنعًا به قبل ذلك، كأنه هو الموهوب له والمسعي في حظه، كل ذلك ليبدي محاسنه ويُرغِّب في نفسه. فكم بخيل جادَ، وقطوب تطلَّق، وجبان تشجَّع، وغليظ الطبع تطرَّب، وجاهل تأدَّب، وتفل تزيَّن، وفقير تجمَّل، وذي سن تفتَّى، وناسك تفتَّك، ومصون تبذَّل».

لقد تغلَّب «حسام» حتى على أغرب أبيات الشعر التي سمعتها حين قال «كُثير عزَّة»:

لو يسمعون كما سمعتُ كلامَها..

خَرُّوا لِعَزَّة رُكَّعًا وسُجودا.

إنها حالة فريدة.. قبح وقتل وحب وشخصية فريدة.. من أنت يا «حسام»؟ كيف عشت حياتك بهذه الطريقة؟

بدأت أظن الآن أن النساء هن أفضل «وصفة طعام» للملائكة.. ولكن في مطبخ الشياطين!

النساء هن من نفقد العالم لأجلهن ومن نحبهن لنستعيد هذا العالم.

العاشقون حقًّا كعَبَّاد الشمس.. ينحنون مرة للجمال ومرة للحب.. فالنساء هن شمسهم الدائمة.

«سارة»

مرت الشهور والآن أحمل ابنتي بين ذراعيَّ.. ابنتي وابنة «حسام الراوي».. في اللحظة التي حققتُ فيها حلم الأمومة ضاع مني حلم الحب للأبد.. أصبحت أكره الرجال وعالمهم.. لقد خضت تجربة جعلتني كارهة لعالم الرجال.. إنهم أوغاد.. إنهم خونة ومتلونون.. إنهم لا يكذبون على النساء بل هم صفة الكذب نفسه ونصف الغدر وكل الخيانة!

بين ذراعيَّ «فرح».. إنها فرحة عمري الجديدة.. ما زال «حسام» في معاناته ولكني الآن مع «فرح» في عالم جميل سعيد.. ربما تعيد لي «فرح» عمري المسروق بين طيات الفقر والخداع.. نعم عدتُ مرة أخرى لمهنتي القديمة.. وهل ترك الفقر لي غيرها؟ لقد انتهى «حسام» وخرج من حياتي فمن سيصرف عليَّ غير أنصاف الرجال في الحانات مرة أخرى؟

عدتُ إلى الخطيئة ولكني لن أعلمها لـ«فرح».. ستصبح ابنتي أطهر البنات وأكثرهن أخلاقًا.. ستصبح كل ما أنا لست عليه.. سأحاول أن أجني الكثير من المال مستخدمةً جسدي وجمالي لأجعلها تعيش ما لم أعِشه أبدًا.

نعم يا ابنتي.. ستكبرين وتحققين كل ما تحلمين به..

ستكبرين يا «فرح» وأرى يوم فرحك وأقبِّلك وأقبِّل زوجك الذي

سيحافظ عليكِ من بعدي.

ستكونين حلمي الذي لم يتحقق وخلودي الذي لم أعشه.

كم أنتِ جميلة يا «فرح».. ما أجمل الطفولة الخالية من كل الشوائب البشرية.. الخالية من كل جرائم البشر وكذبهم!

أحيانًا تخرج من الشرنقة فراشة جميلة.. وأنا سأخرج من محنتي بفراشتي «فرح» للدنيا الجميلة.. لن أعيش لأتذكر الماضي.. سأصنع لكِ الحياة والمال يا «فرح» حتى لو ضحيت بعمري ونفسي.

ذهبت إلى المعلم «تليمة» الذي كان يدير أعمالي قبل أن يعلم أخي «سالم» ويصبح هو مدير أعمالي.. ما زال المكان على عهده يعج برائحة الجنس وآثام الليالي الجائعة.. قلت له وأنا أحييه: كيف حالك يا معلم؟

قال وهو مندهش ولا يصدق: الله الله! من؟ «سارة»؟

قلت: هل هناك عمل لي عندك؟

قال: يا سلام.. عمل؟ أخدمك بعينيَّ.

قلت: عدتُ يا معلم وسآخذ مكاني مرة أخرى.. وهذا عشمي بك.

قال: أنا خادمك يا «سارة».

عدتُ لحياتي.. وستكبر «فرح» يومًا لأهديها حياة أجمل وأنقى وأطهر.

«مريم»

أيام صعبة وغريبة أمرُّ بها.. لم أعد أشعر بساقي من التعب ولا بقلبي من فرط ما ألمَّ به.. لم أعد أعرف كيف أعرف حقيقة الناس.. لن أصدق أحدهم بعد الآن.. تذكرت فجأة وأنا أجلس على أحد المقاعد وأنا خارجة من المستشفى، كي أستريح قليلًا، أن «حسام» كان يقرأ ذات يوم كتابًا بين المحاضرات في أيام الجامعة وكانت تلك عادته التي لا يمل منها، فسألته: ماذا تقرأ يا «حسام»؟

قال: كتاب تاريخ ممتع جدًّا.. هل تعرفين قطر الندى؟

قلت في ابتسامة: لا بصراحة، لكن اسمها جميل.. أم هي رجل؟ ههههه.

قال وهو يبتسم: لا، هي فعلًا امرأة.. هي بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، أبوها زوَّجها من ابن الخليفة العباسي وكان أكبر فرح سمعت عنه في حياتي.

- كيف؟

- انظري ما هو مكتوب عمَّا حملته قافلة الفرح:

أربع قطع من الذهب عليها قبة من ذهب مشبك، في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجواهر لا تُعرف لها قيمة.. دكة من الذهب، تضع عليها قدمها كلما دخلت إلى حجرتها. مائة هاون من الذهب يدق فيها العود والطيب. ألف مبخرة من

الذهب، ناهيك عن مئات الصناديق المحتوية على الملابس والأقراط والسلاسل الذهبية وفصوص من الأحجار الكريمة. وفوق هذا وذاك أمر خمارويه والي مصر أن يبني لابنته قطر الندى على رأس كل مرحلة من مراحل الطريق الطويل، فيما بين القاهرة وبغداد، قصرًا تنزل فيه، معدًّا بكل ما تحتاجه العروس في سفرها من الراحة وأسباب الرفاهية، فتشعر وكأنها في كل قصر تنزل فيه بأنها لم تفارق قصرها في القاهرة.

قلت: يااا! كل هذا؟ هل هناك من يستحق كل كنوز الأرض؟

- ويستحقون أن تزحف إليهم كنوز الأرض أيضًا باكية.

- هل هو الحب ما قد يفعل هذا؟

قال وهو يشيح بوجهه ويلملم أوراقه: الحب هو الكنز نفسه.. الجميع سيصل إليه في النهاية.. مصير البشر كلها في أيدي القدر والحب.

كأنني لم أعرفه يومًا.. أهذا هو «حسام» القديم، أم هو «رائد» القاتل الغريب الذي أحبني؟ ما زلت لا أصدق أن «رائد» هو الذي أحبني.. أنا لا أعرف «رائد».. لا أعرف إلا «حسام».. «حسام» الذي أكاد أقول إني أحببته ولا أتردد.. لولا أنه لم يبُح لي أبدًا.. لقد اعتبر الحب كتمانًا.. فكتمت أنا مشاعري أيضًا.. ولكن هل كان حبنا سيصل إلى بر الأمان؟ لا أعرف.. لا أظن أن الناس سيرحمونني.. لا أظن أن أصدقائي سيرحمونني.. سيقولون إني تزوجت مسخًا في

النهاية.. نظرة المجتمع تحكمنا أكثر مما نتخيل.. لو كنت أحببته حبًّا حقيقيًّا لم أكن سأهتم بنظرة المجتمع.. أم أن تلك النظرة حاصرت حبي لـ«حسام» وقتلته في مهده؟

إنهم الناس مرة أخرى.. إنها الحياة بكل تناقضاتها.

وجدت طفلًا صغيرًا داخل المستشفى، أظنه في زيارة لأحد المرضى مع أهله، قدَّم لي زهرة وقال: تفضلي يا «طنط».

ابتسمت وقلت له: ما اسمك يا حبيبي؟

قال: «حسام».

آه يا «حسام».. إنك في كل مكان حولي.. حتى الطفل على اسمك وكأنه أعطاني ما لم تستطِع أنت عمرًا أن تعطنيه.. زهرة رقيقة عبَّر بها عن حبه.. إنك لم تعبِّر عن حبك إلا في أوج ضعفك وجنونك وغضبك.

لا أعلم إن كنت قد غفرت لك بعد أن كنت أتمنى أن أنتقم منك.. شيء ما لا يزال بيني وبينك.. شيء لا أفهمه وأنت قاتل زوجي المستقبلي..

خرجت من المستشفى ورأيت «حسام» من بعيد.. رأيته ينظر من النافذة ويبتسم.. إنها الابتسامة الأخيرة.. هل سأراه بعد ذلك أم أنغمس في حياتي وأنساه للأبد؟

خرجت إلى السيارة.. جلست وأنا أشعر أني سأغادر إلى حياة أخرى مختلفة عن كل ما عشته سابقًا.. لقد فقدت حبًّا حقيقيًّا وحبًّا

مخلوقًا.. فقدتهما في أقصر مما كنت أتخيل.
أدرت السيارة وفتحت أغنيتي المفضلة People Are Strange وظللت أدندن بها.. حتى وصلت إلى حيث لا أعلم.. ما وصلت إليه.. في حياتي عمومًا.. وفي قلبي تحديدًا.. حياتي زورق.. لم أعد أفهم وجهته!
وأصبح «حسام» يطاردني بوجهه في كل مكان.
أصبحت أراه في كل ما يقابلني حتى في الطريق..
لقد ظننت يومًا ما أن «حسام» طريقي ووجهتي، ولكننا دائمًا لا نعرف وجهتنا الحقيقية إلا بعد فوات الأوان ولا نعرف الحقيقة إلا بعد أن نصل بأنفسنا إلى حافة الوهم.
لقد كتب كل شيء في صندوقه.. كتب جملته التي تمزق قلبي.. قال لي الطبيب إنه كان قد وضع عنوانًا كبيرًا بخط واضح في الصندوق مكتوبًا عليه جملة مظللة بألوانه الخشبية، هي:
«المسخ يعشق مريم».
آه لو علمت يا «حسام» أني أيضًا كنت قد قاربت على عشقك.. لكان كل شيء قد تغير.. كل شيء يا.. حبيبي الذي كتم الزمان حبه!!

«حجازي عبد الله»

قصة ساخنة ملتهبة.. كمٌّ تفاصيل لم أكن أجمعه في مائة قصة معًا.. كنت أتوقع منذ أن رأيت «حسام» أن به شيئًا غامضًا ولكن لم أكن أتخيل أبدًا أن أصل إلى هذه النتيجة..

نشرت القصة كاملة على الرغم من أن الأوراق الخاصة بـ«حسام» بالطبع غير متداوَلة وغير مسموح تداولها؛ فهي خاصة بالقضية ولكني كتبت ما أعرفه عنه ونشرت، في سلسلة، قصتي معه وحتى كيف كنت أسمع بكاءه في الفجر.

لقد أرضيت طموحي ولكني أشعر بالذنب.. الكل يظن أني كصحفي ميت الضمير وسعيد بالتدخل في شئون غيري.. ربما تكون الصحافة قد علَّمتني الكثير من الصفات الذميمة ولكني حقًّا أشعر بالذنب.. هل أنا سبب في ما وصل إليه «حسام»؟ هل كان بالإمكان أن أساعده مبكرًا وأنقذه مما هو فيه؟

أصبح الضمير محكمتي.. أصبح يجلدني كل يوم وكل ليلة.. على الرغم من تألقي فإن كثيرين كانوا ينفرون مني حتى جيراني في المنطقة عرفوا كل شيء وأني كنت أتقرَّب منه فقط من أجل مصلحة شخصية وليس كما قلت لهم إني سأكون كأخٍ له وأرعى أموره عندما قطن في المنطقة أول الأمر.. لقد كنت أجلس معه على المقهى وكان الجميع يظننا صديقين ولكنهم عرفوا الحقيقة الآن.. إنها علاقة

مصلحة ومقالات.. لقد كنت أهتم بأمره فقط من أجل الشهرة والمال.. نعم أحيانًا أشعر بأني رخيص.. ومبتذل.. كأخباري التي أقدمها من أجل أن تعجب الجمهور أو أن أحصد الإعجاب على شبكات التواصل.

نعم أشعر بلعنة.. إنه الضمير.. لأول مرة أرددها.. أشعر بضميري وهو يبارزني وأحلم بضميري وهو يقوم بتصويري بعدساتي ويفضحني.. الجزاء من جنس العمل.. إنه يرددها في أذني..

ضميري يقتلني.. اللعنة تطاردني.. «حسام» يطاردني بوجهه في كل مكان.

«يكون المرء في غاية الجنون عندما يحب».

سيجموند فرويد

«بإمكاني حساب حركة الأجرام السماوية ولكن ليس جنون البشر».

إسحاق نيوتن

«دكتور أدهم السعيد»

في تاريخي المهني لم أصادف حالة مثل حالة «مريم».

اسمي «أدهم السعيد»، عمري ٤٤ عامًا، أعمل في إحدى المصحات الخاصة، وهي مصحة «الأمل» منذ ٧ سنوات بعد أن كنت في الخليج لفترة ثم أتيت للاستقرار في مصر.

كنا قد فرغنا بالأمس من تفريغ الصندوق الخاص بـ«مريم» والمثقل بأوراق كثيرة كنا قد جمعناها وتم ترتيبها لنجدها كأنها أشبه بقصة أو رواية قد كتبتها!

«مريم» عمرها ١٩ عامًا.. الآن في مصحة «الأمل» تحت إشرافي مع الدكتور «أحمد الصياد».

«الصياد» زميلي منذ سنوات وفي نفس عمري، لكنه كان دومًا يعمل في مصر ولم يسافر الخليج، كان متزوجًا ويعول وكان لا يحب الاغتراب، ولكنني ما زلت عازبًا ولا أفكر في الزواج لأنني أجده عبئًا في رأيي الشخصي لا طائل منه، حتى إن «الصياد» يقول لي أحيانًا: «سنحجز لك عنبرًا وحدك.. هههههه.. هل تقول هذا كله عن الزواج؟».

الغريب في مجتمعنا أن العازب يقول عن المتزوج الكلام نفسه؛ فهو حين يتزوج أحد أصحابه يقول الجملة الشائعة: «المجانين زادوا واحد»!!

سواء أكنت متزوجًا أو عازبًا في مجتمعنا، ستُتهم بالجنون وأنك تسير عكس التيار.. لكن الأغلب والأعم يجدون أن التيار مع المتزوجين، بينما يظل العازب محاصَرًا بالأسئلة الغبية الحمقاء من نوعية:

«مش هتعملها بقى»؟

«انت مش شايف إنك كبرت ولازم تتجوز»؟

«يلا بقى يا بطل ولا مش ناوي»؟

التدخل في شئون العازب في مجتمعنا أصبح موضوعًا مثيرًا للسخرية بشكل أو بآخر.

كنا نتابع حالة «مريم» باهتمام.. كنت أقرأ ما كتبته في صندوقها الذي قال عنه والدها: صندوق «مريم» في حياتها كل شيء.. كانت تخبئه تحت السرير ولا تدع أحدًا يقترب منه أبدًا.

الصندوق مليء بالأوراق والملفات، لكن الجزء الأكبر منه كان عبارة عن ملف مكتوب عليه بخط مرتعش «المسخ يعشق مريم».. أما باقي الأجزاء فكانت عن طفولة «مريم» وذكرياتها مع أمها ومع الطلبة في المدرسة.

«مريم» قبيحة ودميمة جدًّا.. هي نفسها عبَّرت عن نفسها فيما كتبت بلفظ «المسخ».. كانت تعرف أنها مسخ.. لكنها ألصقت هذه الصفة بشخصية «حسام الراوي» في الرواية أو «رائد»، فالاثنان مجرد شخص واحد.

سألت والدها باهتمام: حضرتك تقول إنها مولودة بهذا الشكل؟

- نعم.. منذ صغرها.. وبدأت المشكلة تزداد بعد أن كبرت قليلًا وأدركت نظرة الناس إليها وسخرية زملائها من شكلها فاضطرت للبقاء في المنزل والتعليم عن طريق نظام «المنازل».

قلت في حيرة: غريبة جدًّا.

- ما الغريب؟

- في الأوراق التي كانت في الصندوق تصور «المسخ» أنه كان نتيجة عمليات تجميل.. هل حاولتم أن تقوموا بعملية تجميل لها؟

- حاولت أكثر من مرة ولكن بلا جدوى.. هل ترى مكان العين نفسه؟ هل ترى وجهها؟ إنه ليس فقط موضوع سيمترية أو عدم اتساق، لكنه أكبر من هذا.. إنه تشوه كامل.. تشوه منذ لحظة ميلادها.

ذهبت إلى أكبر أطباء التجميل ولكن الحالة لا يمكن علاجها.

- هذا قدرها يا أستاذ «حسين».. المهم أن نُخرجها الآن مما هي فيه.. وسنقدر بإذن الله.. طبعًا «مريم» جاءت إلى المصحة في حالة صعبة.. وأنا جلست مع حضرتك أكثر من مرة، لكن بعد ما قرأته في الصندوق أريد منك تفاصيل أكثر عن اليوم السابق لدخولها المصحة.

- كانت تصرخ بجنون في آخر يوم.. كسرت المرايا في المنزل وقالت: لن أراك.. لن أراك مرة أخرى. وكانت تركض وتصرخ بشكل لم أعهده منها.. وكان هذا يوم أن تشاجرت مع «سارة» زوجتي وكانت

«مريم» في غرفتها، إلى أن قالت «سارة» أثناء الشجار بصوت واضح: «حسام الراوي» أيضًا حبيب «مريم».

في هذا الوقت، صفعت «سارة» وتوترت الأجواء بالمنزل وطلبت الطلاق.. كنت أعرف من قبلها كل شيء عن «سارة» ولكن متأخرًا جدًّا للأسف.. راقبتها وعرفت كل تفاصيل مكالماتها ورسائلها وفضائحها.. لقد خُدعت خدعة كبرى.. لكن «مريم» صرخت بقوة رهيبة ووضعت يديها على أذنيها حينما سمعت «سارة» تتحدث عنها وعن «حسام الراوي».. وكل هذا حدث في يوم واحد بعد مرور شهر على طرد «حسام الراوي»، مدرس اللغة الفرنسية، من منزلنا.

- وكيف كانت حالة «مريم» طوال هذا الشهر؟

- «مريم» كانت تكتب في الصندوق باستمرار لكن على فترات.. أما بعد خروج «حسام» من البيت فكانت فترات الكتابة تأخذ اليوم كله وكانت أحيانًا لا تأكل طوال اليوم.

- لكن ما سر الصندوق؟ لماذا لم تكتب في دفتر عادي للمذكرات؟ لماذا تحديدًا صندوق؟

- الصندوق كان أعز شيء عند «مريم».. يذكِّرها بأهم ما فقدته في حياتها.

قلت في اهتمام: تقصد والدتها الله يرحمها؟

- نعم يا دكتور.. والدة «مريم» كانت تحب «الأنتيكات» القديمة.. تجمعها باستمرار.. وفي مرة أهديتها هذا الصندوق وكانت فرحة

به جدًّا.. وبعدما تُوفيت والدتها كانت «مريم» تقوم باحتضان الصندوق وتبكي.

- واضح أن العلاقة بينهما كانت أكبر مما أتصور.

قال والحزن يتسلل إلى عينيه: «مريم» كانت ترى في والدتها السند من مشاكل الدنيا.. رغم أنها لم ترَها إلا حوالي سنة واحدة فقط.. لأنها تُوفيت و«مريم» طفلة، الله يرحمها.

كانت تقول لي أحيانًا وهي فرحة وتصفف شعرها: ماما قالت لي حينما أكبر سأكون أجمل وإن هذا الوضع مؤقت.

كنت أتعجب ولكني كنت أجاريها في حديثها.. إنها لم تتحدث معها أبدًا لأنها كانت طفلة صغيرة

مع وفاة والدتها شعرت أن كل الأحلام اختفت، خصوصًا أن الواقع حاصرها بكل ما هو أسوأ وناس قبيحة من داخلهم.. على الرغم من الابتسامة على وجوههم.. لكنها ابتسامة كاذبة.

- لكن لحظة الانفجار جاءت متأخرة.

- «مريم» طوال عمرها حزينة.. وحتى عندما كانت تصطنع الفرحة كانت لكي تجعلني سعيدًا فقط ولكني أعرف من عينيها ومن نظراتها أنها دائمًا منكسرة.

- نظرات الطلبة حينما كانت في المدرسة؟

قال في حسرة: ليس الطلبة فقط للأسف.

قلت في تعجب: من أيضًا؟ هل تشك في أحد آخر كان يهين «سارة»

بسبب وجهها؟

- أنا لا أشك.. أنا متيقن.
- لا بد أن أعرف منك لأنه سيساعدني في علاج «مريم».
- من كنت أظنها ستعوضني عن كل ما خسرت.

صحت في دهشة: زوجة حضرتك؟

فجأة صاحت إحدى الممرضات وقالت: أنقذنا يا دكتور.. «مريم» تصدم رأسها في الجدار بقوة.

قلت لأستاذ «حسين»: أرجوك انتظر هنا.. ليس مسموحًا لك بالدخول وهي في هذه الحالة.. لا تقلق.. «مريم» حالتها تهمني مثلك تمامًا.

هرعت مسرعًا إلى غرفة «مريم» وفتحت الباب لأجد الدماء تسيل من رأسها وهي تبتسم وتقول لي بابتسامتها المفزعة: أنت تحبني.. أليس كذلك؟ كلكم تعشقون «مريم».. أنا «مريم» جميلة الجميلات.. غدًا سيكون «العرسان» صفوفًا طويلة على بابي.

اقتربتُ منها وأنا حزينٌ على حالها وقلت: «مريم».. أنتِ أجمل بنت في الكون.. أنتِ جميلة يا «مريم».. أنتِ إنسانة جميلة يا حبيبتي.

قالت في حماس وعيناها تلمعان بشكل غريب: حبيبتك؟ لماذا؟ هل أنت «حسام الراوي»؟

«حسام الراوي»؟ ما الذي يحدث؟ ما هذه الحالة التي تزداد تعقيدًا

لحظة بعد لحظة؟ هل كان «حسام الراوي»، مدرس اللغة الفرنسية، يحب «مريم» أو يوهمها بحبه؟ لا بد من الجلوس معه وأيضًا مع مدام «سارة» لكي أكتشف المزيد من الحقائق حول الحالة.

لقد قلتها لـ«مريم» بطريقة أبوية «يا حبيبتي»، لكنها كالرادار تترصد كلمات الحب حولها ولا تسمع أو لا تهتم بباقي الكلمات.. إنها تريد الحب بشتى السبل.. تريد مشاعر تواسيها في غربتها عن العالم.. تريد كلمات تُشعرها بأنها أنثى.. تريد من يحبها من أجل الحب لا من أجل الشفقة وحسب..

كل امرأة تريد أن تسمع كلمات الحب لتحيا، لكن «مريم» تريدها لتشعر في الأصل أنها امرأة!

قلت لها محاولًا جعلها تطمئن: كلنا نحبك يا «مريم» ليس فقط «حسام».

ظلت تنظر إليَّ بحذر ثم تنظر إلى شباك الغرفة وتنظر إلى السقف فترة ثم قالت: أمي فقط.. أريد أمي.

«مريم» تشعر أن أمها فقط هي من أعطتها الحب الحقيقي في حياتها.. مشاعر الأمومة لا يمكن تعويضها وتعويض صدقها بألف إحساس آخر.. الأم هي ألوان الحياة ونبضها.. الأم هي الوعد الباقي والصدق الأبدي والعطاء الوحيد بغير مقابل.

ثم نظرت إليَّ مرة أخرى وعيناها تضيقان بشكل غريب وقالت بصوت منخفض جدًّا في أذني: هل أحضرتم الصندوق؟

قلت لها: نعم يا «مريم».
منذ عدة أيام عندما أحضرنا الصندوق وقمنا بتحليله، لم نكن بذلك نعتدي على خصوصيات المريض ولكن ما فعلناه كان في نطاق عملنا. ولذلك سألت والدها عن الصندوق وأحضرناه لنقوم بإكمال عملنا في محاولة علاج «مريم» بشكل كامل ومحاولة إعادتها إلى عالم الواقع مرة أخرى.
الصندوق يعوِّض «مريم» عن افتقادها أمها.. إنها ترى فيه الأمان الكامل؛ لهذا وضعت فيه خلاصة فكرها وشخصياتها التي خلقتها لتهرب بها إلى عالم الحب مرة أخرى.. الحب الحقيقي الخالي من المصلحة.
كان لا بد، لكي نكمل العمل على أتم وجه، أن نحلل ما في الصندوق، أن نعرف سبب الصراخ والتعلق المرضي بهذا الصندوق لكي نستطيع أن نساعدها ونخرج بها إلى بر الأمان.
في أول يوم دخلت «مريم» المصحة سألت والدها عن الصندوق فتساءل في حيرة: صندوق؟ «مريم» سألت عن الصندوق؟!
قلت له: نعم.. اليوم صرخت بعنف وكانت تريد الصندوق.. ما الذي بداخل الصندوق؟
- أنا فعلًا لا أعرف، ولكني أعرف أنها تكتب أوراقًا كثيرة وتضعها داخله.. وقلت لنفسي إنها خصوصياتها وسأتركها تفعل ما تشاء وتشغل وقتها بالكتابة، وبعد ذلك عرفت أنها متعلقة بالصندوق

بشكل مريب.. إنها تحبه أكثر من نفسها.

- لكن ألم تشك في شيء؟

- أبدًا.. كانت «مريم» دائمًا تقول لي: أتمنى أن أكتب يا أبي.. أتمنى أن أصير كاتبةً وسأجد يومًا ما فكرة الرواية.

- هل كانت تكتب منذ وقت طويل؟

- «مريم» كانت دائمًا تقرأ الكتب، حتى إنها كانت تقرأ كتبًا أكبر من سنها بكثير، حتى إنها في الإعدادية أنهت أعمال جبران وراسين وموليير.

سهرنا مع الصندوق عدة أيام أنا وزميلي الطبيب «أحمد الصياد».. لم نذُق طعم النوم حتى نحلل ونحاول أن نفهم كل ما كتبته «مريم».. لماذا استعملت هذه «التيمة» كما يقولون في الأفلام والأعمال الفنية في روايتها التي كتبتها في الصندوق؟

لماذا كان يسيطر عليها هوس فكرة «الشخصيتين» في روايتها؟ ولماذا جعلت من «حسام الراوي» مسخًا وهو مدرس اللغة الفرنسية الذي قال عنه والدها إنه وسيم إلى حد ما؟

وماذا تمثل شخصية «سارة» العاهرة بالنسبة لـ«مريم»؟ ومن هذا الجار الصحفي الذي يتدخل في شئون «رائد»؟ كلها ألغاز تحتاج لحل.. «مريم» هي من الآن لغزي الكبير.

«مريم» ذكَّرتني بإحدى القصص التي قرأتها قديمًا، وكانت القصة أن رجلًا وامرأة جلسا بجانب شباك يطل على الربيع وكانت جلستهما

تجعلهما متقاربين جدًّا، فقالت المرأة: أنا أحبك.. أنت جميل وأنت أبدًا ودائمًا على جانب كبير من الجاذبية.

وقال الرجل: وأنا أحبك.. أنت فكرة جميلة.. بل أنت شيء تسامى عن أن تناله يد.. أنت أغنية في حلمي.

غير أن المرأة أدارت وجهها وانفلتت غاضبة وقالت: أرجوك أيها السيد أن تفارقني منذ اللحظة؛ فأنا لست فكرة ولا شيئًا يطوف بك في أحلامك، أنا امرأة وأود أن تشتاق إليَّ، أن تشتهيني.

وافترقا.. وقال الرجل في سره: هو هو ذا، حلم آخر تبدد وتحول إلى ضباب.

وقالت المرأة وهي تتأمل وحيدة: ما لي ولرجل يحولني إلى ضباب وحلم؟

«مريم» لا تريد أن تتحول في ذاكرة من تحب وفي عقله إلى ضباب وحلم، إنها تريد أن تكون هي.. أن تكون الجميلة «مريم»!

قرأت الأوراق في الصندوق أكثر من مرة وسألت الأب بعدها بعد أن أرهقني التحليل والتفكير في الشخصيات التي خلقتها «مريم» في رواياتها: هل تعرف مَن «حجازي» يا أستاذ «حسين»؟

قال في دهشة: أكيد.. صديقي الأستاذ «حجازي» الصحفي.. «مريم» كانت تحترمه جدًّا.

على الرغم من أنه صحفي والكاميرات هي كل حياته فإنه كان يعرف أن «مريم» لا تحب التصوير ولا تحب أن ترى وجهها في

الصور.. وكانت تقول إنه مثلها الأعلى.

- «مريم» صوَّرت الأستاذ «حجازي» في شكل صحفي يتدخل في شئون جاره بشكل مزعج وكتبت عنه وعن مهنته كلامً مشينًا وشديد اللهجة.

سؤال آخر يا أستاذ «حسين».. من «سالم»؟ «سالم توفيق».

- سالم هو خال «مريم».. كانت تحبه جدًّا؛ لأنه كان دائمًا يهاجم المتشددين والمتطرفين باستمرار.. ويقول عنهم تجار دين.. وكان دائم الشجار مع أخيه لأنه يحاول أن يفرض النقاب على زوجتي السابقة، الله يرحمها، والدة «مريم».

قلت: الآن فهمت.. «مريم» جسَّدت خالها في الصندوق على أنه إنسان محطم اتجه للقتل بسبب الفقر وكان يتاجر بكلمة التوبة لكي يبتز «حسام» ويحصل منه على المال.

قال في تعجب: معقول؟ كل هذا بداخلها وأنا لا أدري؟ سامحيني يا ابنتي.. أنا السبب.. أنا السبب.

- ومن «يارا» يا أستاذ «حسين»؟

- «يارا» كانت صديقة «مريم» قبل أن تترك المدرسة.. ولكن «مريم» لم تكن تحبها أبدًا ولا ترتاح إليها وتشعر أنها تسخر منها من وراء ظهرها.

- وهل سمعت عن «محمد البحيري»؟

- هذا أيضًا كان دائم السخرية منها.. إنه شقي جدًّا وكان

يجعلها تبكي في المدرسة.. سامحه الله.

قلت: الآن فهمت كل شيء.. فهمت معظم الشخصيات التي كتبت عنها «مريم» وأوجدتها في عالمها.

شكرت أستاذ «حسين» على وقته معي ثم استأذنته لإكمال عملي ووعدته بلقاء قريب جدًّا.. بدأت أكتب على «اللاب توب» مرة أخرى وأكمل تقرير «مريم» وأذكر بعض الملحوظات:

صندوق «مريم» هو صندوق الخوف والرغبة.. هو صندوق الحياة بالكامل.. حياة «مريم» الخفية التي لا يعرفها أحد.. لقد كانت تحترم الأستاذ «حجازي»، الصحفي صديق والدها، فصوَّرته في شكل صحفي فاسد ويتدخل في شئون غيره.

وكانت تحب «حسام الراوي» فجعلته مسخًا يهيم بها لدرجة أن وصل إلى مرحلة جعلته في الرواية مريضًا نفسيًّا.

وعكست صورة خالها وجعلته تاجر دين وقاتلًا على الرغم من أنها كانت تحترمه.

وجعلت من «سارة»، زوجة الأب، عاهرة ولكنها ذات قلب طيب، على الرغم من أنها رأتها في الحقيقة ذات قلب قاسٍ وكانت تعاملها بقسوة كما قال الأستاذ «حسين».

وجعلت من نفسها جميلة الجميلات.. جعلت من نفسها حلمًا لشباب دُفعتها وتخيلت سنوات دراسة في الجامعة والجميع فرح بها ونشوان بجمالها، حتى إن «حسام الراوي» كان مريضًا بحبها،

لدرجة صراعه مع «البحيري» عليها.. لقد جعلت حتى «دنجوان» الدفعة يعشقها ويترك كل علاقاته السابقة من أجلها.

جعلت من «البحيري» عاشقًا وهو لم يكن إلا ساخرًا هازئًا بها.

صندوق «مريم» هو المرآة التي كانت تحب أن تنظر إليها.. لقد كرهت مرايا المنزل لأنها ترى وجهها على حقيقته، فخلقت لنفسها مرايا ورقية.. تعكس كل صورة فيها لترى نفسها الأجمل.. لقد كانوا كلهم في رواية «مريم» مجرمين أو عاهرات أو قتلة أو متاجرين بالقضايا إلا «مريم».. حتى «يارا» جعلت لها صفة ذميمة، وهي أنها تفشي كل الأسرار وثرثارة.. لا أحد يملك صفات جيدة في رواية «مريم» إلا «مريم» نفسها.. لقد جعلت نفسها المثالية في عالم المسوخ.

حتى إنها قالت عن أبيها إنه كان وفيًّا ولم يتزوج بعد أمها، ولكنه في الحقيقة تزوج بعدها.. لم تهِنه ولم تنصفه.. تركته مسئولًا عمَّا يحدث ولكن لم تقولب شخصيته في عدة صفات مثلما فعلت بكل ما حولها.. ولكنها في روايتها وفي عالمها كانت تتهمه سرًّا بعدم الوفاء.

«مريم» كتبت رواية.. حققت حلمها في سن صغيرة بأن تصبح كاتبة.. جعلت كل من فيها مسخًا وجعلت الكل يندم بطريقة ما..

«حسام» أو «رائد» ندم وبكى أمام «مريم»..

الصحفي ندم على ما فعله في «حسام».

«سارة» ندمت على حبها لـ«حسام».

«يارا» كانت تفكر هل أخطأت حقًّا حينما وافقت «مريم» على فكرة الذهاب لمقابلة من سيعطيها تفاصيل عمَّن قتل زوجها.

«مريم» نفسها ندمت على ما حدث لـ«حسام» وعلى الوضع الذي وصل إليه.

استخدمت الأسماء الحقيقية لتصنع منها خيالًا وعالمًا خاصًّا بها.. صنعت عالمها الذي كانت فيه الأجمل.. وجعلت كل من حولها قبيحًا حتى إن حاول التوبة والندم.

تحدثت عن صديقة خيالية وذكرت أن زوجة أبيها تبخِّرها وتخاف عليها من كل شيء.. لقد تمنت أن تكون زوجة أبيها بهذه الطيبة والمعاملة الحسنة.

رواية «مريم» حققت حلمها في أن تصبح كاتبة وجميلة في الوقت نفسه.

إنه صندوق الحلم.. صندوق حياة «مريم».

«حسين عبد الرحيم»

كم أفتقد ابتسامتك يا «مريم».. كم أفتقد صباحك العذب وتحيتك الرقيقة لي مع طلوع كل شمس «صباح الخير يا بابا».

كم أشعر بالندم على ما فعلت بك.. سأعتبر نفسي دائمًا المتسبب في انتكاستك يا ابنتي.. أنا المجرم فاغفري لي.

قالوا إن الحظ يذهب لمن يستحق.. ولماذا لم تكن تستحق «مريم».. «مريم» الرقيقة البريئة ذات القلب الذهبي وإحساس النسيم العابر.. «مريم» المجاملة البريئة الوفية؟ لماذا خدعتها الدنيا وتبرأ منها الحظ؟

لماذا صادرت الدنيا حقها في الحياة ونصيبها من الجمال؟ هل الجمال أصبح حكرًا على بشر بأعينهم؟

أحيانًا أستغفر ربي وأنا أفكر في هذه الأفكار وألعن الحظ والدنيا، ثم أنكب باكيًا بحسرتي عندما أنظر إليها.

ولكن أنا الذي زدت الطين بلة وتزوجت، وكنت أعرف أن الزواج إما لذة لا تتكرر وإما تكرار لا يلذ.. كنت أعرف أن بعض الزيجات تكون كارثية وتدمر حياة عائلة ولكني تعجلت.. كان يجب أن أعرف أني لن أجد أحن وأرق من زوجتي السابقة «نادية».

كانت «نادية» الأم المثالية في نظري.. عندما كنا في غرفة العمليات وكانت في لحظة ولادة «مريم» كانت عيناها تبكيان من الفرحة

وهي تعتصر الآه والألم وهي باسمة.. ولادة طفل هي لحظة تتخلل مسامك وتهز أسمى المعاني بداخلك.

ولادة طفل هي لحظة يخرج فيها الكون عن صمته ليقول: عودوا لرشدكم وتعلموا أجمل معاني البراءة والرحمة في عينَي هذا الطفل.

قلت لـ«نادية» وأنا أحتضن يدها في فرحة: مبروك يا حبيبتي.. يا فرحة عمري كله.. هذه ابنتنا التي ستكمل فرحتنا.

بعد لحظات كانت أول نظرة لـ«مريم» من أمها وهي تصرخ كحال أي طفل في ولادته.. ولكن لم تكن كأي لحظة.. لقد صرخت «نادية» أيضًا.. صرخت وبكت ونظرت لـ«مريم» بحزن وقلت لـ«نادية»: هذا قدر الله يا «نادية».. لا بد أن نتحمل.

كانت «مريم» قبيحة لدرجة أن الممرضات تعجبن.. كانت ملامحها أشبه بلعبة «البازل»، فلا شيء تقريبًا في مكانه.. تساءلت وقلت لنفسي: هل سنكون قدر هذا الاختبار؟ لقد كانت «مريم» فرحة عمرنا التي انتظرناها ولكن سرعان ما أصبحت حزننا الأزلي.

لم تستسلم «نادية».. كانت تبكي لمدة أسبوع ولكنها كانت تعرف أن الخوف هو أولى مراحل الاستسلام.. كانت تعرف أن الخوف هو أولى مراحل تشييد سجن اليأس.. أن الخوف صديق الضعف الأزلي.

بعدما بكت لفترة قالت لي في أحد الأيام: القبح والجمال ليسا بيدنا يا «حسين».. لا بد أن تحيا «مريم» مثل أي بنت.. سأعلِّم «مريم» أفضل تعليم.. سأدفع عمري كله كي تحيا هي سعيدة.

كنت أشعر بالسعادة القصوى لكلماتها وهي تقاوم أشباح اليأس، ولكنها سعادة ناقصة كادت تكتمل لحظة ولادة «مريم».. ولكن الحياة حرمتنا من فرحتنا التي انتظرناها.. ولكن الحياة لا تحرمنا من شيء نتمناه إلا لدرس نتعلمه ويعيننا عليها.

كانت تبكي في حضني.. وأقول لها: لا تضعفي يا «نادية».. لقد قلتِ إننا سنكمل للنهاية.. سنكمل ونسعد «مريم».. طوال عمرنا يا حبيبتي وأنا أعاهدك أنني سأسعدها؛ لأن سعادتها من سعادتكِ وأنتِ عمري كله.. زوجتي وبيتي وسندي وحياتي.

حاولتُ كثيرًا.. شهورًا.. بل سنوات.. أن أعالج حالة «مريم»، ولكن بلا جدوى.. كانت الحالة أشبه بالمستحيل.. تشوه كامل لا مناص منه.

دخلت «مريم» الحَضَانة ولاحظت نفور الأطفال من حولها.. لا أحد يلعب مع «مريم».. كانت في البداية لا تشعر لأن المُدرسة كانت تجلس معها وتشفق عليها وتساعدها في تركيب المكعبات.

كنت أشكر المُدرِّسة على ما تفعله من محاولة إسعاد «مريم» الحزينة.. كان الأطفال لا يلعبون معها وتجلس وحدها.. حتى لقَّبها البعضُ بأنها «مريم الحزينة».. كم أنت جريء أيها الحزن.. الآن أتذكر مقولة نجيب محفوظ: «حتى إذا حزنت يجب أن يكون حزنك مقدسًا».

كم أنت جريء أيها الحزن لتهدم فرحة طفلة حتى في لعبها البريء

في سنها الطاهرة النقية..

كيف أجعل من حزني مقدسًا وهو لا يذبحني كل يوم على هيكله المقدس بل على أرضه المفروشة بالأشواك؟ كيف أجعله مقدسًا وأنا أرى دموع ابنتي بعد أن كبرت ودخلت المرحلة الابتدائية، وهي المرحلة التي جعلناها فيها تتعلم في المنزل بدلًا من البكاء كل يوم والشكوى من الوحدة والحرمان من التواصل مع الجميع غير المشفقين عليها وعلى حالتها الفريدة؟

استقرت «مريم» في المنزل في المرحلة الابتدائية.. كانت عبقرية في دراستها.. كان كل المدرسين يقولون لنا إنها من أذكى من قابلوا.

كانت لا تذهب إلى المدرسة إلا في الامتحانات فقط.. وعلى الرغم ممَّا تلاقيه من نظرات استهجان فإن تلك الفترة فقط هي فترة ثقتها في نفسها.. كانت تعرف أنها أذكى منهم جميعًا ولكن شيئًا يمنعها من الحياة.. أو حياة تمنعها من كل شيء!

كانت «مريم» تقول لي دائمًا إن أمها قالت لها وصيتها: اهتمي بكل شيء يا حبيبتي.. خذي بالك من نفسك ومن أبيك.. لا تحزني يا «مريم».. كوني فرحة أبيك لأنه يستحق السعادة.. إنه إنسان طيب.

كيف تتوهم «مريم» كل هذا؟ إنها حاجتها لحضن أمها.. حاجتها لأم تهرب بها من عالم يقسو عليها.. «نادية» لم تقُل شيئًا لـ«مريم» لأنها ماتت وعمرها سنة فقط، لكن «مريم» تتخيل كل هذا وأنا أوافقها دائمًا وأحضنها بألم.

كانت «مريم» تكره جميع المرايا في المنزل.. لا تريد أن ترى وجهها حتى على زجاج السيارات أو انعكاسها على الماء.

مسكينة «مريم».. ماتت أمها وسندها في كل شيء.. ذهب عكازها الذي تستند عليه من قسوة الأيام.. ذهبت «نادية» وكسرت شيئًا في نفسي وفي نفس «مريم».. أصبح البيت كأننا لا نعرفه.. لقد ذهبت «نادية» بكل معاني الأمل.. مسكينة يا حبيبتي.

بعد سنوات، قررت أن أتزوج.. ربما يتهم البعض المتزوجين بعد وفاة زوجتهم بالنذالة، لكني لم أكن أتزوج لنفسي.. بل قالها لي مرة أحد الأصدقاء وأقنعني بفكرته: صدِّقني، تزوَّج وغيِّر حياة «مريم».. «مريم» تحتاج إلى أم يا «حسين» تفهمها وتعيد الفرحة للمنزل.. البيت اليتيم حزين يا «حسين».

وتزوجت «سارة».. التي رشحتها لي إحدى صديقات العمل.. «سارة» كانت بيضاء اللون رشيقة القوام تشعر بأنها أصغر من سنها.. وحين تزوجتها كانت في الأربعين من عمرها وكنت أنا في الخامسة والأربعين.. بينما كانت «مريم» في الخامسة عشرة.. كانت ذكية وصدمها قبح «مريم» في البداية، إلا أنها حاولت ألا تُظهر ذلك.

مرت الأيام وكانت «مريم» تشتكي لي من «سارة» كل فترة، لكني كنت أصلح بينهما وحاولت أن أهدئ الأمور ولم أكن أصدق «مريم» لأنها تحاملت أكثر من مرة على صديقي «عصام» وقالت إنه يضايقها في كل مناسبة، على الرغم من أنه كان صديقي الذي

لا أرتاح إلا معه.
في المرحلة الثانوية ظهر «حسام الراوي»، مدرس اللغة الفرنسية.. قالت لي «سارة» إنه كان صديقًا لعائلتها منذ فترة طويلة وإنه من أشهر المدرسين حاليًّا.
ارتاحت «مريم» لـ«حسام» وقالت لي: أستاذ «حسام» طيب جدًّا وشرحه ممتاز يا أبي.. ليت كل المدرسين مثله.
كانت المناوشات تحدث أحيانًا بين «مريم» و«سارة»، لكني لم أكن أعرف طبيعة العلاقة؛ لأن عملي كمهندس في إحدى الشركات الكبرى كان يحتِّم عليَّ أن أكون خارج البيت لساعات طويلة وأحيانًا أسافر على نفقة العمل.
في إحدى المرات، قاطعت حصة درس اللغة الفرنسية لأسأل الأستاذ «حسام» عن مستوى «مريم».. فوجدته قد أعطاها قطعة شوكولاتة وهي تبتسم.. أعجبتني طريقته وأنه يعاملها حقًّا كأخ أكبر، وفي الوقت نفسه يتحسن مستوى «مريم» جدًّا في اللغة الفرنسية.
حتى جاء اليوم الذي صدقت فيه كل شيء.. وأنا عائد إلى المنزل في وقت متأخر سمعت من خلف باب الغرفة ولم أصدق ما أسمعه.. سمعت «سارة» وهي تقول لـ«مريم»: نعم أنتِ قبيحة.. قبيحة جدًّا ومسخ.. أنتِ وحش على هيئة بني آدم ولا يمكن أن ينظر لكِ أحد.. العرسان سيهربون منك.. هل تقارنين نفسك بي؟ أنا كانت أمي تبخِّرني دائمًا من جمالي.. كانت تقول لي «العرسان هيقفوا على

بابي طوابير»، وفعلًا كانوا يقفون طوابير، ولكن من حظي الأسود اخترت أباكِ وعشت مع إنسانة مثلك.. أنتِ مسخ يا «مريم».

كانت هذه نهاية رحلتي مع «سارة».. ظلمت ابنتي ولم أكن أصدقها في البداية، وقلت: ربما تبالغ في خلافات عادية تحدث بينهما.. كانت صدمتي كبيرة في «سارة»، والآن أصدق كل شيء يا «مريم».. الآن فقط أصدق كل شيء.

كانت «مريم» في الفترة الأخيرة منهمكة في الكتابة قبل أن تدخل المصحة.. ليلًا ونهارًا.. كلما انتهت من إحدى صفحاتها وضعتها في الصندوق.. حاولت «سارة» في مرة أن تعرف سر هذا الصندوق ولكن «مريم» صرخت بشدة وحذرت «سارة» أن تقترب منه مرة أخرى وأن تترك «مريم» وخصوصياتها ولا تتدخل فيها أو تقتحم حياتها.

لم تكن فكرة زواجي الجديد فكرة سديدة.. لقد ندمت على أني تزوجت بعد «نادية».. لقد خنتك يا «نادية» وأستحق جزائي أن تكون حياتي أكثر تعاسة.. البعض اعتبر ما فعلت من حقي ولكني كنت أراه خيانة لأجمل ذكرى عشتها.. خيانة الذكريات كخيانة البشر.. كلاهما طريق لموت القلب.

لم يقف الأمر عند هذا الحد.. بدأت أراقب «سارة» بعد أن حذرتني «مريم» في مرة وهي تبكي ولا تفسر لي ما حدث.. كانت مكتئبة منذ فترة وكانت حتى لا تأكل جيدًا وبدأت أتفرغ للمنزل وأترك العمل

فترة لأعرف ما الذي ألمَّ بـ«مريم» وأضعف جسدها إلى هذا الحد.

بدأت أراقب «سارة» وعرفت أنها تخونني.. لقد رأيت رسائل «الموبايل» وعرفت أنها تخونني..

تخونني مع أكثر من رجل.. لقد شعرت لوهلة بأنني لم أتزوج من امرأة..

لقد تزوجت من عاهرة.. عاهرة محترفة!!

«سارة»

أتممنا إجراءات الطلاق.. لقد عرف كل شيء.. هذه المجنونة «مريم» أخبرته بكل شيء قبل دخولها للمصحة بأيام.. إنها مجرد مسخ لا تليق إلا بأماكن كهذه.. ربما تليق عليها أيضًا الإقامة الجبرية في إحدى حدائق الحيوان.

كم أكره هذه الوقحة.. هل ظنت حقًّا أنها تنافسني في «حسام الراوي»؟ هل سيترك رجل مثله امرأة مثلي من أجل مسخ؟ إنها حقًّا مجنونة.

لقد سمعني «حسين» في أحد الأيام وأنا أقول لـ«مريم» أمام المرآة إنها مجرد مسخ.. لا أعرف ما الخطأ في هذا.. لقد قلت لها كل ما في نفسي..

لقد تركني زوجي السابق قبل «حسين» وأخذ طفلتي.. طفلتي «سندس» الجميلة.. قال عني إني غير شريفة ولا أؤتمن على تربية طفلة مثلها..

أين أنتِ يا «سندس» الغالية؟ ذات يوم سأعرف كيف أصل إليك وأنتقم من هذا العفن.. نعم، إني أشتهي الرجال كما أشتهي الملابس والإكسسوارات.. لا أعرف كيف أستقر على رجل ولا تعجبني فكرة الزواج أصلًا.. لو كان في وسعي لتزوجت أربعة رجال في وقت واحد.. لست وقحة ولكني صريحة وصادقة أكثر مع نفسي.

فقدت ابنتي وظننت أن «مريم» ستعوِّضني عن فقدانها حتى فوجئت في أول يوم رأيتها فيه.. إنها كالوحوش.. إنها تصلح أن تكون في «بيت الرعب» في ملاهي الأطفال.. لا يمكن أن تكون أنثى بأي حال من الأحوال.

لقد تجرأَتْ في أحد الأيام وقالت لي أن أذاكر لها دروسها.. كيف ظنت أني سأساعدها في شيء كهذا؟ أنا حتى لا أعرفها ولا عندي ذرة اهتمام بها.. كانت أولى مراحل الشجار بيننا.. كانت تظنني أمها.. قالت لي في حدة: يا خسارة.. ماما كانت بتعمل لي كل حاجة وبتساعدني في كل حاجة.

قلت لها في قوة: أمك ماتت وانتهى الأمر.. أنا لست أمك.

بكت في هذا اليوم وحاولتُ أن أهدئ الأمور كي لا أسمع صوتها العفن مع هذه الملامح القبيحة حتى عاد «حسين» ووجدني أربت على كتفيها وظن أن علاقتنا جيدة في البداية.

كان لا يصدق ابنته عندما تقول له إني أسيء معاملته.. نعم لقد سحرته بقوامي ورشاقتي ولم يعد يرى غيري، حتى إنه كان يقول لها: هل ستشكين يا «مريم» مرة أخرى؟

لكم اشتهيت «حسام».. إنه رجل كطيب الثمار الرطبة اللذيذة.. كنت أعض على لساني كلما مر أمامي إلى حجرة الدرس.. كنت أتمناه لي ولو لليلة واحدة..

كنت أتمنى أن يدوس على جسدي كالقطار ويخرج مني شهقة

العمر ورعشته الندية.
قالت لي «مريم» في أحد الأيام: انظري ماذا أعطاني أستاذ «حسام».. كانت قطعة شوكولاتة أخذتها منها بالقوة وقلت لها: كلام فارغ.. لا تأخذي منه شيئًا.. هذا مدرسك وليس صديقك.
ولكنها احتفظت بالغلاف.. بل إني رأيتها وهي تضعه في هذا الصندوق الغريب وتغلقه بمفتاحها مرة أخرى..
نعم، كنت أحاول أن أوقع «حسام» في شباكي.. ليس لأنه رجل مميز ولكن لأنه رجل فحسب.. كل الرجال لا بد أن يقعوا في شباكي.. أنا «سارة» التي لا تقاوَم.
في أحد الأيام حاولت أن أقترب منه أكثر حينما كان ينتظر «مريم» في الغرفة المعتادة للدرس.. اقتربت منه بجسدي الفائر وملابسي المثيرة، وفي هذا الوقت رأتنا «مريم».. لقد تجمدت في مكانها.. لقد سقطت منها الدموع بشكل تلقائي وكأنها تغار عليه.. هل ظنت أن «حسام» يحبها؟ هل ظنت هذه المعتوهة أن قطعت شوكولاتة لقبيحة مثلها ستكون علامة على حبه؟
لقد تهرَّب مني «حسام».. إنه لا يريدني.. قالها لي أكثر من مرة إنه لا يستطيع أن يخون «حسين».. إنه مضحك جدًّا.. هل هناك في هذا العالم رجل لا يخون؟
بعد هذا اليوم، تغيَّرت حياة «مريم».. كانت تجلس في غرفتها بالساعات وتغلق الباب بالمفتاح.. كان «حسين» قلقًا عليها وأنا لا

أهتم بالطبع.. ما الذي سأهتم به في مسخ؟!

كان «حسين» لا يعرف سبب تحول «سارة» للعدوانية مع «حسام الراوي» فجأة، لقد كان مدرسها المفضل، فماذا حدث؟

حتى جاء اليوم الذي وجدته يمسك بإحدى حقائبي ومعه هاتفي المحمول وأنا أدخل الغرفة وصحت في وجهه: ماذا تفعل يا «حسين»؟ هل جُننت؟

صرخ في وجهي: سافلة وخائنة.. هل تثقين في لهذه الدرجة؟ واثقة بعدم شكي فيك وتتركين رسائلك الوقحة بدلًا من أن تمسحيها؟ كل ما قالته «مريم» عنك صحيح.. كانت تشك فيك وتسمعك تتحدثين في الهاتف حتى الفجر أحيانًا أثناء نومي.

- «مريم» مجنونة.. لا تصدقها.

- اخرسي.. «مريم» مثل أمها.. إنسانة محترمة، وليست مثلك أيتها الدنسة.

في هذا الوقت، خرجت «مريم» من غرفتها فقلت لـ«حسين» صارخة: ليست شريفة لهذه الدرجة.. لا توهم نفسك.. بنتك كانت تريد «حسام الراوي».. أم نسيتِ يا «مريم»، أيتها العاشقة الولهانة؟

صفعني «حسين» على وجهي حتى ارتطمت بالجدار.. سال من وجهي الدم وأنا أنظر إليه بحقد وغضب..

كانت ترتجف بشكل غريب وتقول وكأنها لا تسمعني: أبي.. لقد أنهيت الرواية.

نظر إليها «حسين» في شفقة وقال: «مريم».. ادخلي غرفتك الآن يا حبيبتي.

قلت في عنف: طبعًا لا تصدقني.. مثلما تفتشني ممكن أن تفتشها أيضًا.

هرعت إلى غرفتها بسرعة صارخة: فتِّشها ستجد كل شيء.. ورقة شوكولاتة محتفظة بها ذكرى لحبيب القلب الذي تظن أنه يحبها.

ليس من المستغرَب أن تجد حتى الصندوق مليئًا بقصائد الحب عن المحروس.. أنت مغفل كبير.

ظلت الدموع تسيل على خدها بهدوء غريب وكأنها فعلًا لا تسمعنا.. وأكملت: بابا.. أنا جميلة، أليس كذلك؟ أنا أعرف أنهم يقولون عني جميلة.

لم يكن «حسين» يستوعب ما يحدث.. ما هذا الهدوء المريب مع الدمعات المنهمرة على وجهها؟

حتى حاولتُ الوصول إلى الصندوق مكملة رحلتي في البحث عن دليل يدينها أمام «حسين»، لكنها صرخت بطريقة لم أرَها من قبل.. كانت صرختها كألف زئير، لدرجة أني وضعت يدي على أذني وأخذها «حسين» بين أحضانه ثم شدني من يدي محاولًا إبعادي عن الصندوق وطردني خارج البيت وقال: إجراءات الطلاق ستنتهي قريبًا.. أنا لا يشرفني أن تجلس امرأة مثلك في بيت واحد مع «مريم».

لقد طردني هذا المجنون بملابسي خارج البيت.. وأنا في الخارج كنت

لا أزال أسمع أصوات الصراخ بشكل هيستيري.. لقد جُن جنون «مريم».. لقد وصلت إلى مرحلة لم أكن أتخيلها.. لقد صدمها «حسام الراوي».. وهي لا تعلم أنه كان يرفضني ولم يكن دلالي له أي معنى ولا تأثير عليه.. لقد ظنت أنه يخونها.. ولكن.. عن أي رواية تتحدث المسخ؟

«حسام الراوي»

ظلمتني «مريم» وظلمتها.. لم أكن أتخيل أن تشك في «مريم» لهذه الدرجة.. كنت أعرف من داخلي أن «مريم» تحبني.. شعرت بدقات قلبها وهي تحدثني وهي تنظر إلى عيني.. لقد أعجبتني ثقافتها في البداية.. إنها على الرغم من صغر سنها مثقفة بشكل كبير وملمة بالكثير من أمور الأدب والشعر.

ربما كانت «مريم» ترى نفسها قبيحة.. لكن الجمال عندي لا يقاس بالملامح، بل بالصفات والعقل الجميل.

لم أتمالك نفسي عندما أتاني خبر انتحار «مريم» في المصحة.. كان هذا اليوم هو أكثر الأيام سوادًا في حياتي وحياة الأستاذ «حسين».. لقد قال لنا الطبيب بحزن إنها استعملت إحدى الشفرات التي دخلت إليها بطريقة ملتوية إلى المصحة وقطعت شرايينها كليًّا.. وحينما دخلوا إلى غرفتها وجدوها غارقة في بحر من الدماء.. سيبقى اللون الأحمر في عيني يا حبيبتي هو رمز الحزن والموت.. لقد مات قلبي حينما فقدتكِ يا «مريم».. حان الوقت أن أعترف أني كنت أحب «مريم حسين»!!

لقد أحببتها وكنت أخاف من رد فعل الناس.. كنت أخاف من نظراتهم وكلامهم.. لقد كنتُ ضعيفًا وقبيحًا أكثر من «مريم».. قبحي كان حقيقيًّا، بينما قبح «مريم» كان ستارًا لعالم من الجمال

الخفي الذي لا تراه الأعين ولكن تشعر به الأنفس.
كنت مترددًا في الإفصاح عن مشاعري.. كنت أعيش في حالة إنكار أحيانًا وأتهرب من قصة حبي الغريبة.. آه أيها الحب.. لو استعملوا «القتل الرحيم» مع كل عاشق فلن تجد إنسانًا واحدًا على قيد الحياة..
آه أيها العشق.. أيها النهر الباكي الذي لن تهرب من دمعه أو استمرارية عطائه.
كل شيء مدبَّر من قِبَل هذه الشيطانة «سارة».. لقد دبرت كل شيء لكي أظهر كما الآثم في نظر «مريم».. ضاع كل شيء في يوم وليلة.. جلست بعدها مع الأستاذ «حسين» متأخرا وعرف مني الحقيقة وعادت علاقتنا إلى مجراها الطبيعي بعد ذلك.. عرف كل شيء عن زوجته وأفعالها وأني كنت الضعيف أمام خبثها بلا حول ولا قوة.
عرفنا كل أشخاص رواية «مريم» إلا أننا لا ندري بعدُ من هو «رائد الألفي»، من هو هذا اللغز الخفي في حياة «مريم»؟ هل كان حبيبها؟ ولكنها كانت حبيسة الجدران، فمن أين عرفته؟ هل كان شخصًا تتخيله لتهرب به من الحياة؟ من أنت يا «رائد» يا لغزي ويا وجعي وغيرتي؟
الأستاذ «حسين» أصر على تنفيذ حلم «مريم» بعد انتحارها.. أصر أن يحقق حلمها وينشر ما كتبته.. كان يبكي بكاءً عارمًا ويقول: اليوم لم يبقَ سوى حلمك يا «مريم».. اليوم يا حبيبتي سأجعلك

الكاتبة التي حلمتِ أن تكونيها.. اليوم أظهر جمالك أمام العالم.. الجمال الذي لم يروه ولن يروه لأنهم جميعًا أغبياء.. قلوبهم هي السواد وهي القبح وأنتِ الفضيلة والجمال يا ابنتي.

ذهبت معه إلى دار النشر ووقَّعنا عقد الكتاب بعد مرور أربعين يومًا على انتحار «مريم».. هذا اليوم الأليم الدامي في حياتي وحياته.. كان يوقِّع العقود باسمها وهو يبكي حتى سقطت دموعه على العقد.. كانوا يريدون بالطبع توقيعه ولكنه أصر أن يوقع باسم «مريم» ولم ترفض الدار طلبه فقط لأنهم كالعادة يرون في الموضوع صيدًا ثمينًا.. فتاة منتحرة تنشر رواية، يا له من كنز لدار النشر المستغلة..

حينما صمموا الغلاف وضعوا صندوقًا كبيرًا، وهو رمز لصندوق «مريم» الذي كان يلازمها دائمًا، وبعد فترة وفي أولى حفلات التوقيع كنت أجلس بجوار الأستاذ «حسين» وبدأت الأسئلة تنهال علينا بعد نجاح ساحق للرواية وكانت «مريم» المادة المفضلة في هذه الأيام لأطباء النفس على شاشات التلفاز لكي يحللوا شخصيتها ويحاولوا أن يفسروا ما الذي أدى إلى انتحارها.. ما الذي يجعل فتاة صغيرة في المرحلة الثانوية تنتحر؟

قامت إحدى الفتيات في حفل التوقيع الذي امتلأ عن آخره وسألت الأستاذ «حسين»: هل ترى أنك مسئول بشكل ما عمَّا حدث لـ«مريم»؟

كان السؤال صادمًا وجريئًا.. لقد بدأت الهمسات في القاعة حتى

جاء الرد الصاعق للأستاذ «حسين» الذي كان في نفس جرأة السؤال: نعم.. أنا مسئول عن انتحار «مريم».. لن أخلي مسئوليتي..
استطردت الفتاة: وهل فكرت في نشر الرواية لهذا السبب؟
رد عليها الأستاذ «حسين» في انكسار: لا.. لقد نشرت الرواية لأن حلم «مريم» عندي أهم من كل شيء.. أريد أن يعيش ويبقى في هذه الدنيا جزء منها.. حتى لو كان مجرد حلم يواسيني في غيابها.
أشارت إحدى الفتيات بيديها وبدأت في طرح سؤال آخر: أستاذ «حسام».. هل أحببت «مريم» فعلًا؟
مرة أخرى أثار السؤال رد فعل عارمًا في القاعة ونظر إليَّ الجميع وكانوا في انتظار الإجابة على أحر من الجمر حتى قلت فجأة بتأكيد وثقة: نعم.
وأكملت وأنا دامع العينين: لقد كنت أحب «مريم حسين».. أحببتها من كل قلبي.. حتى وإن أنكرت مشاعري فترة طويلة.. الآن أقولها أمام العالم: لقد أحببت «مريم».
صفَّق الحضور في شكل هيستيري وبدأ الصحفيون في التقاط الصور لهذا الاعتراف الذي بدا لهم صادقًا تمامًا.. لقد كنت صادقًا معهم ومع نفسي.. والناس دائمًا تقتنع فقط بالاعتراف المصاحب للدموع، وكأن الدموع هي ختم الثقة.
أصبحت رواية «صندوق مريم» الأكثر انتشارًا ونجاحًا.. ولكن أغرب ما قابلني في يوم حفل التوقيع هو هذا الرجل الذي ينظر إليَّ من

بعيد.. خلف العدسات والكاميرات.. كان يقف وينظر بحيرة إلى كل ما حوله.. لقد رأيته أيضًا من قبلُ أمام قبر «مريم».. من هو؟ حينما توجهت صوبه حاول التخفي وسط الزحام ولكني أمسكته من كتفه وقلت: من حضرتك؟ هل أعرفك؟ هل أنت صديق «مريم»؟

كان يرتدي معطفًا طويلًا وقال وهو ينظر إليَّ بابتسامة ويصافحني بحرارة: اسمي «رائد».. «رائد الألفي».

«رائد الألفي»!!

«أنا»

أنا؟ ربما تتعجبون الآن.. ربما أصبح الأمر لغزًا لكم، ولكن من قال إني لا أعشق الألغاز؟

ربما يتساءل أحدكم الآن: أين الحقيقة؟ وأين الخيال؟ من الشخصية التي ابتكرت من؟

أهلًا بكم في ديمومتي ودوامتي اللذيذة.

أنا «رائد الألفي».. وتلك روايتي.. و«مريم» شخصية من شخصياتي.. جعلتها مسخًا وأنا المسخ.. جعلتها تتخيلني في روايتها مسخًا.. رغم أني من تخيلتها في روايتي مسخًا..

جعلتها تنتحر على الرغم مِن أني مَن فكرت ألف مرة في الانتحار..

أنا المسخ الذي يعشق «مريم» الجميلة..

أنا «رائد الألفي».. المعذب والمقتول والمصلوب من عيون الناس.. خمس عمليات جراحية وأخيرًا السادسة تنجح..

اليوم تخلصت من قبحي الذي فقدت بسببه معظم علاقاتي الاجتماعية.. أنتم لا تعرفون معنى الألم.. كل أحزانكم هامشية وضعيفة.. هل حقًّا تتألمون؟ أنا لا أصدق لأني أنا الألم ذاته..

أنا الذي عشت عمرًا لا أستطيع النظر في وجوه الناس دون أن ترتسم على وجوههم علامات تعجب.. أنا الذي حرمت نفسي من حبي الوحيد بسبب قبحي الذي أفقدني الثقة في كل شيء أملكه

ولا أملكه.

أنا الذي عشت حياتي كأنني شخصية حائرة من شخصيات «ماركيز» أو رجل نهشه الحزن كشخصيات «زولا».

أنا القبيح الذي لا تزيده ابتسامته إلا نفورًا.. أنا القبيح الذي لا ألقى من الناس إلا كلمات الأسف على حالي.. أخيرًا.. أخيرًا نجحت العملية يا «سارة»..

آه.. عفوًا.. ستسألون: ومن «سارة» أيها المجنون؟ ستقولون عني مجنون لأني لعبت بكم عدة مرات ما بين الأوراق حتى أصبحتم لا تعرفون من «حسام» ومن «رائد» وأين الحقيقة وأين الخيال.. سأتقبل صراخكم وسبكم لي.. وأقول لكم: صدقوني مرة أخرى، أنتم لا تعرفون مِن قريب أو مِن بعيد ما هو الألم.

يكفيك فخرًا يا صديقي أنك تستطيع أن تمشي بين الناس دون أن تدمع حتى إن كنت فقيرًا وإن كنت لا أستطيع إلا أن أكون سجينًا في حبسي الانفرادي وجدران بيتي.

يكفيك فخرًا أنك تستطيع أن تعشق وتبكي وتتألم وتبتسم لمن تحب، بينما أنا أنظر في الأرض أو أسافر إلى المغرب لأقابل صديقتي وعاهرتي الجميلة «سارة» لكي أدفع لها المال لتقول لي: أنت جميل يا «رائد».

هل تعلم كيف تموت من داخلك ألف مرة وأنت تشتري كلمات الثناء بالمال؟

كنت أمارس معها الجنس ألف مرة لكي أثبت لنفسي أن هناك من يرغب في.. كنت مريضًا نفسيًّا بشكل يُرثى له.. كنت أدفع المال لفتيات «المساج» لكي يقبلنني ويقُلن لي: أنت لست قبيح.. نحن نحبك. وحينها أنظر لهن وأبتسم ابتسامة ترعبهن.

هل تعلم أيها القارئ العزيز أنك في نعمة لا تتخيلها؟ فكِّر جيدًا في وجهك العادي وستعرف أن السير في الشارع نعمة والنظر للناس بثقة نعمة.. ما أتعس أن يكون كل البشر حولك وأنت تختبئ في داخلك في فزع كالوحش غير المرغوب فيه!

يكفي الوسيم ابتسامة لتذيب الجليد الذي حوله ويتودد الناس إليه، أما القبيح فيحتاج أن يتحدث عن فلسفة أرسطو كي يلتفت أحد إليه ويقدره أو ينظر إليه..

إنه عالَم ظالم.. إنه عالَم الوجوه والصور.. لا تصدق من يقول لك أنت جميل من داخلك.. صدقوني، كل شيء في هذا الغلاف الوجهي التافه.. صورة خادعة لشخص قد يكون هو الأعفن والأقبح.. ولكن الصورة أصبحت كل شيء.

أخيرًا نجحت عمليتي الأخيرة بعدما كان اليأس هو صديقي الدائم.. ذهبت إلى المغرب مرة أخرى.. هذه المرة فوجئت «سارة» وقالت: «رائد»؟ مش ممكن؟ ازاي؟ ازاي؟

كنت أدفع لها مئات الدولارات لكي تقول لي إني جميل.. كنت أقول لها كما يقول «نزار»: أن تقول لي ولو كذبًا كلامًا ناعمًا.. وبالطبع هي

تقول إني جميل كذبًا وزورًا.
كانت أول مرة آتي لبيت الدعارة في المغرب منذ عدة سنوات بوجهي القبيح.. نفرت مني عدة فتيات وقبلتني فقط «سارة».. لقد جعلتها أيضًا في روايتي تتقبلني بوجهي القبيح.. إنها «سارة» أول امرأة في حياتي بعد «مريم» الغالية.
كان القبح هو الذي لم أكمل بسببه علاقتي مع «مريم».. لقد تركتها وهربت.. تركتها تختار بنفسها الإنسان الجميل الذي يستحقها.
«مريم» هي حبي الأول والوحيد والمستمر والأبدي السرمدي.. كانت أولى كلماتي لها حين كتبت في أوراقي:
لا أعرف كيف استحال الموت فيك حياة.. وكيف استحال كفري بالحب رسلًا وأنبياء في عينيك يمزقهم نبضي كل ممزق ثم يؤمن بهم..
كنت وحيدًا في عالمي فأصبحتِ الوحيدة فيه يا «مريم».. كنت القبح وصرت رقصة الجمال الصوفية..
تنورة ملونة بحروفك يا «مريم».. أراقص بها السماء وأغني على دمع البنفسج.. ارحمي يا «مريم» قلبي.. ارحمي عزيز قوم عشق.. ارحمي عزيز قوم عشق.
كان أول اعتراف لها بالحب.. ولكني لم أرسله لها.. كان الخجل رفيقي.. كان قبحي حائلًا بيني وبينها.. هي كانت تعرف من كل نظرة ومن كل تفصيلة في وجهي أني أعشقها، ولكني لم أبُح لها أبدًا..

خرجت من عالم «مريم» قبل أن أدخله.. كان حبًّا سريًّا تشعره هي ولكنه حب بلا اعتراف.. حبيس الأدراج والمرايا.

عندما تعطي الحياة ظهرها لنا فهي لا تخاصمنا.. الحياة لا تخاصم.. هي فقط تقول لك: ادفعني إلى الأمام.

كنت أقول دائمًا لنفسي هذه الجملة، محاولًا أن أصبر على حالي ولكن بلا جدوى.. ضحكات الناس ونظراتهم تقتلني.. أين العلاج في وسط أطباء تجميل بلا ضمير؟ عملية تلو الأخرى ولا تزيد النتيجة إلا سوءًا.. لم تنجح إلا مع طبيب شاب كان يعرف حالتي بدقة وأرشدني إلى أحد أكبر أطباء التجميل في الخارج وقال إنه أملي الوحيد الآن.. لقد خرجت من العملية «رائد» مختلفًا.. لقد وهبتني الحياة أخيرًا نعمة الحسن والجمال.

قالت لي «سارة» بعد أن مارست معها الجنس لساعات طويلة: هل رأيت «مريم»؟

«سارة» كانت تعرف كل شيء عن حياتي.. شجَّعتني في عز قبحي أن أحدث «مريم» ولا أخجل وإن كانت تحبني فلن تهتم لشكلي.. ولكني رفضت..

ربما سيقول أحدكم الآن: هل هكذا تحتفل بنجاح عمليتك؟ تمارس الجنس في أحد بيوت الدعارة؟ أنتم لا تشعرون ما أشعره.. ولا تعرفون ماذا عانيت في حياتي، فاتركوني أستمتع في سلام.. أنا الذي يتسول كلمات الثناء فلا تلوموني على ما أفعل.

أصعب شيء في العالم أن تشعر أنك كالمجذوم.. في وادي المجذومين كما هذا المشهد في فيلم «بن هور».

الناس نوعان في هذا العالم: البعض يعيش في عالم الأحلام، والبعض يشارك في حلم العالم.. وأنا النوع الثالث الذي أعيش في عالم من هلوسات الأوهام!

أنا الهارب من الشمس والمرايا.. واليوم أحتفل مع «سارة» بعودتي للعالم.. اليوم أنقش على جسدها أنشودة سلام بشكلي الجديد الذي لا أعرفه.. اليوم حصلت على السعادة وأخاف أن أبددها.

عرف أصدقائي نجاح عمليتي وقالوا إنهم سيكونون في استقبالي في المطار.. كنت أعتزلهم منذ سنوات ولكني قلت لـ«سامح» صديقي، وهو أخبر الباقين، بأني أخيرًا عدت للحياة مرة أخرى بدلًا من الهروب وراء الهروب.

لا أعرف أخبار «مريم».. لم أسأل عنها منذ سنوات لأني أخاف من الصدمة.. ربما عدت ووجدتها ما زالت لم تتزوج فأصارحها لأول مرة بحبي.. هذا ما أتمناه.

سألتني «سارة» في الوقت نفسه وأنا أدخن سيجارتي بجوارها على السرير الذي جمعنا أيامًا وأيامًا: هل تظن أن «مريم» قد تكون لك في يوم من الأيام؟

قلت: «مريم» لي دائمًا يا «سارة».

- ولكنك كنت ضعيفًا وهربت ولم تواجه.

- هربت يا صديقتي لأني لم يكن في حياتي ما يستحق الحياة.
قالت في حيرة: والآن.. لماذا عدت؟
نظرت إليها مبتسمًا وأنا أنفث دخان سيجارتي: لأن في عينَي «مريم» ما يستحق الموت.
قبَّلتُ «سارة» وجعلتها تقرأ بعض أوراق الرواية فتعجبت وقالت: لقد جعلت «مريم» مسخًا بشعًا يتم علاجه في مصحة.. لماذا فعلت هذا؟ كيف شوهتها بقلمك؟
- كان لا بد أن أشوهها بقلمي لأجد سببًا للهروب.. كان لا بد أن أضعها في مكاني لتعذرني حتى ولو في عالم الخيال.
- فعلًا أنت تعيش في عالم الخيال يا عزيزي.
- أظن أن الله جعلنا نرمش بأعيننا لكي نتأكد هل هذا العالم الذي نعيش فيه واقع أم خيال.. نفتح أعيننا في دهشة.. لنتأكد هل ما نراه هو الحقيقة أم لا.
- امممم.. فلسفة.
- دعكِ من هذا الكلام الآن، وقولي لي: ما أخبار مدام «لبنى»؟
مدام «لبنى» هي مديرة بيت المتعة كما تسميه.. ترفض أن يقول الناس عنه بيت دعارة فكانت تسميه «بيت المتعة».
بعد أن أصبحتُ زبونًا دائمًا في رحلاتي لهذا المكان الذي تديره «لبنى» من مصر وتعمل فيه فتيات مغربيات وصينيات وجنسيات مختلفة كن هن بمثابة أصدقائي الذين يراعون حالتي ولا يسخرون

من وجهي.. كن قد تعودن على قبحي وأصبحن يحتفلن معي بعيد ميلادي.

جربت عشرين، بل قل مائة فتاة، مع «سارة» بعد أن كن ينفرن مني في البداية، ولكن منذ أن دخلت معي «سارة» زادت ثقتهن في أني جيد في ممارسة الجنس؛ لأن «سارة» لم يكن أي شيء يرضيها، كانت كإلهة الجنس في نظر هذا البيت.

كانت الفتاة الصينية «تونج» تملك جسدًا من عاج.. هذا الجمال الآسيوي الفريد الذي تدخل معه إلى عالم الشرق الأقصى بملكوته وسطوة شهوته وهياجه.

أنا لا أعتبر نفسي أخون «مريم»، بل أهرب منها.. في حياتي أنا بالذات ربما تكون الخيانة علاجًا.. رغم أنها في الواقع أكبر مرض.

كنت أدخل هذا البيت لأستمد منه الثقة بنفسي.. ما أجمل أن تربت إحداهن على وجهي أو أن تتلاعب بجسدي وتعض حلماتي وهي تطلق صوتًا شهوانيًّا أليفًا.

ما أجمل كلمتي المنتظرة «جميل»، حتى «تونج» الصينية علَّمتُها كيف تقولها بالعربية.. وكنت أؤكد عليها أن تقولها بالعربية: «أنت جميل».

سألتني في البداية وقالت: لماذا؟

كانت تقول لي «لماذا» بالعربية بالذات، على الرغم من أني أفهمها بالإنجليزية، لكن وقع الجملة عليَّ بالعربية أكبر.. أريدك أن تقولي

لي: أنت جميل يا «رائد».

جلسنا عاريين أنا و«تونج» نتحدث في كل شيء.. قبَّلتها وفككت رباط شعرها وتحسسته وقبَّلت جبينها.. كنت أشعر أنها تعوِّضني عن كل شيء حين تقول لي أنت جميل.. أشعر أن حضارة كاملة تشهد بجمالي!

في الأساطير الآسيوية، هناك كائن أسطوري يسمى «نوبيرا - بو»، ويسمى الشيخ ذو اللاوجه.. كنت أشعر قبل أن تنجح عمليتي أنني هذا الكائن، كنت أقول لـ«تونج» الصينية عن هذه الأسطورة اليابانية وكانت تعرفها.. كانت تربت على شعري وتقول لي: لا تقُل هذا.. أنا لا أعتبرك شبحًا.. أنت إنسان طيب ورقيق.

كان لقائي «تونج» - على الرغم من كونه جنسيًّا - مليئًا بالعواطف أيضًا.. هي ليست مشاعر حقيقية بيننا كما أشعر تجاه «مريم»، ولكن كنت أنهل من رقتها الأنثوية ما أعوِّض به حرماني بسبب دمامتي.

كنت أكشف أسراري أمام «سارة» بشكل أكبر، إلا أن «تونج» كانت كأنها خزانة عواطفي وأحزاني.. في حضنها أنسى العالم وأتذكر «مريم» وأبكي وأرى فيها جمالي الذي أفتقده.. أرى فيها «رائد» الجميل الذي أتخيله.

روت لي «تونج» كل شيء عن الصين.. عن الآلهة التي يعبدونها والمعابد وكونفوشيوس والغرامة التي يدفعونها على كل طفل

زيادة حسب تعليمات الحكومة ونظام التعليم.. حدثتني عن بكين وشنغهاي وجوانزو وآيو وهانزو ودونجيانج ومدينة الأفلام التي يتم تصوير الأفلام فيها هناك وهونج كونج وغيرها من البلدان.. كنت أشعر في حضن «تونج» في المغرب أني في بلدين في وقت واحد.. كانت سعيدة وهي تحكي عن بلدها وتركتها تحكي وتسترسل دون أن أقاطعها وهي تقوم بمداعبة جبهتي بحركات المساج الصيني المريح الذي يشعرك وكأنك تحت تأثير التنويم المغناطيسي.

كنت أشعر أني الملك السعيد و«تونج» هي ملك يميني.. كنت أشعر وأنا أستلقي برأسي بين فخذيها أني أترك هموم العالم خلفي وأضحك من قلبي.. لقد تعوَّدَت عليَّ لدرجة أنها لم تعد تتعجب من شكلي، بل تنظر بعمق في عينيَّ المتحجرتين البليدتين وهي مستمتعة.

حينما أنهيت رحلتي إلى المغرب وقبَّلت «سارة» و«تونج» وفتيات بيت المتعة.. أعددن لي احتفالًا كبيرًا بمناسبة رجوع وجهي إلى حالته الطبيعية وشفائي.. لقد بكت «تونج» وقالت لي: الآن حقًّا أقولها من قلبي: أنت جميل.. لقد كنت دائمًا أقولها لك من قلبي، ولكني الآن أؤكدها يا «رائد».

حضنتها وقبَّلت رأسها ونحن نقطع «التورتة» ونحتفل بحالتي.. كان بيت المتعة كله سعيدًا من أجلي.. سعيدًا أيضًا بأني سأنشر روايتي التي قلت لهن إني رويت فيها كل معاناتي وقهري طوال سنوات القبح.. قلن لي إنهن يرِدن نسخة موقعة وكنت أبتسم وأنا في قمة

السعادة.

ودَّعنني في المطار.. كان أصدقائي في مصر قد عرفوا الخبر وقالوا إنهم سيستقبلونني هناك.. حينما نزلت إلى مطار القاهرة عائدًا من المغرب وجدت خمسة من أصدقائي الأعزاء في استقبالي.. كانت علامات الذهول في عيونهم تقول إني فعلًا شُفيت تمامًا..

قال «حسين» وهو في أوج سعادته: «رائد».. لم أعرفك يا رجل.. ألف مبروك.. أنت تستحق كل خير.

وسط المباركات من الأصدقاء ظهرت «مريم» ومعها طفلة رقيقة مثلها تمامًا.. قال لي «سعيد» صديقي في همس: لقد أصرت «مريم» على الحضور حينما علمت بشفائك مثل كل الدفعة.. إنها جاءت مع ابنتها لتستقبلك.

كم جرحتني الكلمة.. «ابنتها»؟ هل مر العمر بهذه السرعة؟ أظن أنه حان وقت الندم على الهروب وعدم مصارحة «مريم».. حان الوقت لأحصد الحزن وثمار سنوات الوهم والتخبط.

كانت طفلة رقيقة جدًّا تحمل ملامح «مريم».. قبَّلتها وحضنتها وقالت «مريم» دامعة: مبروك يا «رائد».. الحمد لله على سلامتك.. هذه «سلمى».. ابنتي.

نظرت إليها وترقرقت دمعة في عيني: تشبهك تمامًا يا «مريم».. نفس الملامح.

وجدت يدًا تهبط كالصقر على كتفي ويحتضنني صاحبها فجأة

قائلًا: «رائد».. الحمد لله يا رجل.. كيف الحال؟ كيف تتركنا كل هذه السنوات؟

كان «محمد البحيري»!! ما الذي أتى به إلى هنا؟ نظرت إلى «مريم» سريعًا ورأيته يحمل «سلمى» بين ذراعيه وهي تقول: هيا بنا يا أبي.. أشعر أني حينها لم أرَ شيئًا حولي.. لقد كان الدوار شديدًا من الصدمة لدرجة أن العالم اختفى لعدة ثوانٍ.. كل شيء انتهى إذًا.. جمالي الذي استعدته كأنه ضاع في لمح البصر.. ما قيمة جمالي دون حضنك يا «مريم»؟

في نهاية الاستقبال وأثناء خروجي من صالة المطار.. عادت «مريم» إليَّ فجأة وكأنها نسيت شيئًا ما وهمست في أذني: أنت الذي هربت.. تحمَّل نتيجة هروبك.. الخوف هو السبب.. لقد كنتُ أعلم كل شيء.. لماذا تركتني يا «رائد»؟ لماذا؟

قالتها ورحلت كالمجنونة.. كقطعة السكر التي ذابت على طرف لساني.. تذكرت في هذه اللحظة أبيات نازك الملائكة وهي تقول:

أليسَ في إمكاننا أن نَغْلِبَ الألمْ

نُرْجِئْهُ إلى صباحٍ قادمٍ أو أمْسِيةْ

نشغلُهُ.. نُقْنعهُ بلعبة.. بأغنية

بقصّة قديمة منسيّة النَّغَمْ؟

هل بإمكاني الآن أن أهزم الألم؟ هل أستطيع؟ لقد عدتُ للحياة والجمال من أجل «مريم»، ولكني لم أجد سوى وجهي الجميل أمام

قبح العالم.. ما قيمة الجمال دون جمالك يا «مريم»؟ أنت جمال العالم لو تعلمين.

لم أكن أدري أني غبتُ كل هذه السنوات.. كنت أتوقع أن أكون فقدتها ولكني كنت أمد نفسي بالأمل الكاذب، ولكن صدمة الواقع كأنها بوقع ألف مطرقة.

ربما لو كان شخصًا آخر غير «محمد البحيري».. ربما.. ولكن الصورة اكتملت بنفس قسوتها في الرواية.. كان قلبي يدق بعنف وشعرت أني قرب الموت للحظات.. كان الواقع بنفس قسوة ما كتبتُ وكأنني كتبت شيئًا من مستقبلي.. وكأنني كنت أقرأ فنجاني على الأوراق.

«سارة»

ضاع «رائد» مني.. ضاع كل شيء أحببته في حياتي.. لم أدرِ هل خبر هروب «رائد» مع «تونج» إلى الصين أقسى أم خبر موته هناك!!

عاد إلينا بعد أيام من وجوده بالقاهرة.. قال إنه لم يستطِع التكيُّف مع المكان الذي خانه.. بكى في صدري وقال: لقد خانتني الأماكن يا «سارة».. لقد ضاعت «مريم».. ضاعت مني بمؤامرة الأماكن والزمن والقبح والعالم.. سأعيش بينكن.. بل سأعمل معكن.. هل تستطيعين إقناعهن بأن أوجد بشكل دائم هنا؟ أرجوكِ حاولي.

في هذه المرة، شعرت بأن «رائد» يضيع مني كليًّا.. كان يتردد على حجرة «تونج» أكثر مني.. وكان يردد لنفسه وهو شبه غائب عن الوعي: انطفأت الشعلة الزرقاء يا «جبران» من فرط الصدمة.. لماذا أطفأتها يا إلهي؟

لم أناقش مع أحد رغبته في أن يوجد بيننا بشكل دائم.. لم أتخيل حتى الفكرة ولكنني أقنعته أن يبقى بيننا عدة أيام ثم نتحدث في الأمر.. صال وجال في المكان.. كان كالثور الجامح بين فخذي وكأنه ينتقم من كل نساء العالم.. أصبح جلده أشبه بالممزق من أظافر الرغبة والشهوة.. لم يكن يتوقف ساعة واحدة.. حتى «إيفا»، الفتاة السويدية التي لم يطأ غرفتها من قبل.. و«كريستينا»، الفتاة الإنجليزية، وغيرهما.. لقد زار في أثناء زيارته الأخيرة كل الغرف..

قال لي في تحدٍّ: سأضاجع العالم أجمع. ثم ضحك بسخرية مقيتة وغريبة واستطرد: سأضاجع في بيتكن كل الجنسيات.. سأنتقم من هذا العالم.

بعدها بأيام عرفنا خبر سفره مع «تونج» في زيارة سريعة كما قالت.. وبعدها بشهر أبلغتنا «تونج» بخبر انتحاره.. لقد ترك لي كل أوراق الرواية وأنا اليوم أكمل آخر فصل فيها وأقول لكم: لقد أحببت «رائد الألفي».. أحببته قبل أن تنجح العملية.. أحببت المسخ الذي عاش بيننا.. نعم كنت كأنني «سارة» التي كتب عنها في روايته.. كأنني «سارة» بكل تفاصيلها.. ولكنني لم أصارحه يومًا بحبي.. لم يكن يصدق أحدًا حين نقول له إنه جميل، فما بالكم لو قلت له إنني أحبه؟! لقد انتقلت إلى المستشفى منذ أن علمت بخبر انتحار «رائد» في بلدة «تونج».. كانت حياته غريبة وموته أغرب.. من يصدق أنه بعد كل هذه المعاناة وبعد نجاح العملية يقوم بالانتحار؟!

ما أغربك أيها المجنون الجميل العزيز الحبيب! أنت الغربة أم أنت السكن؟

سأقولها لكم مرة أخرى: لم أحب أحدًا في حياتي مثلما عشقت «رائد».. فتحت الصندوق الذي تركه لي.. وبدأت أقلب في الأوراق وأكملت لكم آخر السطور..

أعلم أنكم تريدون لوم «رائد».. أعلم أنكم تقولون إنه خائن

ومجنون ولكنكم لم تعيشوا معاناته.. لم تعيشوا فصلًا واحدًا من فصول حياته.
ضعوا أنفسكم مكانه.. هل بكيتم يومًا بسبب قبحكم وكسرتم مرآة المنزل؟ هل عشتم مثله كل اضطراباته النفسية وشربتم فناجين قهوته وأنتم تكتبون عن قسوة القدر؟ هل عشتم مثله في عزلة وحسرة بسبب نظرات الناس وكسرتكم أمام الحب والسخرية؟
فلا تلوموه.. لا تلوموا إنسانًا كان يحاول أن يستمد جماله من أجسادنا.. أن يسمع كلمة «جميل» فيضحك كالأطفال ويصفق بيديه وهو في حالة سُكْر.. إنسانًا عاش في عالمه الخاص لدرجة أنه كان يتوقع أن تنتظره «مريم» كل هذه الأعوام..
كان يقول لي: يومًا ما سأموت وحيدًا في بلد غريب.
لقد تنبأَتْ أوراقُه بكل شيء.. انتحر كما انتحرت «مريم» في أوراقه.. وأحببته أنا كما كتب عني.. وفقد «مريم» كما فقدها في الحقيقة.. انتقل جثمانه إلى القاهرة.. وقفت أمام القبر صارخة وباكية.. وحينها اقتربَت مني امرأة تبكي وقالت: البقاء لله، ولكني لم أرَكِ من قبل.. من أنتِ؟
عرفت أنها «مريم».. كان المشهد كأنه جلاد وضحية.. أنا ضحية الحب و«مريم» جلاد «رائد» البريء.. جلاد دون سبب.. جلاد بسبب ضعفه وليس بسبب ظلمها وقسوتها.. إنها كائن بريء جميل.. لك الله يا «رائد».. لك الله يا حبيبي.. حبيبي أبد الدهر وأبد الحب..

كان يقول لي: الحب نبيذ القلوب.. النبيذ يجلب الابتسامة والحب يجلب البكاء، ولهذا في عشقنا نبتسم ابتسامة أشبه بالبكاء.. الحب حزن دافئ نبيل يا «سارة».

قالت لي «تونج» إنه كان حزينًا جدًّا وبكى بين أحضانها أكثر من ليلة وكان لا يعرف طعم النوم.. قال لها في إحدى المرات: هل تعلمين؟ لو تم بيع هذا العالم غدًا.. سيسأل نصف السكان عن الثمن.. وسيسأل النصف الآخر عن المكان الأفضل الذي سيذهبون إليه.. لن يتمسك أحد بهذا العالم.. لا أحد يا عزيزتي.. صدقيني، إنها الحقيقة.. الآراء دائمًا حُبلى بالكلمات، ولكن الحقيقة عاقر.

إنه «رائد».. بكلماته الغريبة، بآرائه الغريبة، بحياته الأغرب.. «رائد» الذي عرفته وما زلت لم أعرفه.. «رائد» عاشق العالم وكاره العالم في الوقت نفسه.. «رائد» المقبل على النساء الهارب من الحياة.. «رائد» الذي عشق «مريم» ولم يصارحها.. وقف أمامي في إحدى المرات وهو يتحدث عن «مريم» وتدمع عيناه قبل العملية وقال: أنا لا أخاف من العملية.. أنا أخاف من خوفي.. الحماقة لها صديقان يا عزيزتي، هما: التكبر والخوف.

قلت لـ«مريم»: إنني صديقة «رائد». ووقفنا معًا أمام القبر نقرأ له الفاتحة.. يا الله. يا له من مشهد.. عاش «رائد» المسخ بلا «مريم».. ومات «رائد» الجميل وأمام القبر «مريم» تبكيه.. يا له من عالم.. عالم «رائد الألفي».

«حسام الألفي»

من أنا؟ «حسام الألفي».. ليس «حسام الراوي» ولا «رائد الألفي».. بل مزيج من الاسمين هو اسمي الحقيقي وشخصي الحقيقي وليست شخصية ورقية كما سبق.. لا تفتحوا أفواهكم مرة أخرى مشدوهين.. نعم «حسام محمد الألفي».. كم تمنيت أن أكون «رائد» بقوته وبطشه وحياته البوهيمية المجنونة ولكنني ضعيف.. جل ما أستطيعه أن أصنع «رائد».. أن أخلق «رائد» الذي خلق «مريم» التي خلقت «رائد»!!

أهلًا بكم مرة أخرى في دوامة عشقي وألمي.

كنت أتمنى أن أحيا حياة «رائد الألفي» الغريبة وترحاله ونجاح عمليته وكتاباته عن «مريم» التي صورها مسخًا ولكن الحقيقة أني كما أنا.. أنا لست «رائد الألفي» وكم تمنيت أن أكون هو، على الرغم من أنني جعلته ينتحر على أوراقي..

راوٍ.. فقط أروي عليكم ما كنت أتمناه.. أين أنا الآن؟ تعمدت ألَّا أنقل إليكم الزمان.. لأن الحب هو الزمان وهو الأبد.. لن أقول لكم في أي يوم نحن الآن ولا في أي عام.. ولكنني أجلس الآن أمام صندوق كبير به فستان فرح.. أحتفظ به منذ سنوات.. كان حلمي أن أهديه لـ«مريم».. لقد خرجت منذ قليل من قاعة الفرح.. فرح «مريم» و«محمد البحيري».. حضرت الفرح وتمالكت نفسي ولم

أبكِ.. لم تعرف «مريم» يومًا أنني أحبها.. لم تنجح أبدًا العملية كما تتخيلون.. ما زلت أنا المسخ الذي يعشق «مريم»!!

صنعت «رائد الألفي» على أوراقي لأنني أحتاج وجوده.. شوَّهت «مريم» بين الأوراق كأنه انتقام.. خلقت «سارة» لأن.. لا لا.. ليس مهمًّا أن تعرفوا عنها.. بعض الشخصيات بين أوراقي قد تكون حقيقية ولها وجود مثل «البحيري» و«مريم».. هل «تونج» أيضًا حقيقية و«سارة»؟ ربما ستعرفون بأنفسكم.

أنا الأصل وأنا الحقيقة.. أغرقتكم في عالم «رائد الألفي» لأنني أريد أن أغرق فيه مثلكم.. كنت أتمنى أن أعيش حياته وأن تنجح عمليتي في يوم ما وأعود جميلًا.. ولكنني «المسخ الذي عشق «مريم» ويبقى الحال كما هو عليه.

جعلت «مريم» بين أوراقي تعرف، ولو من بعيد، أنني أعشقها، بينما الواقع يقول إنها لا تعلم أي شيء ولا تتوقع حتى أن يعشقها مسخ.. ولا تريد الحياة مع مسخ مثلي.

جعلت العملية تنجح وهي مستحيلة كليًّا.. سأبقى كما أنا مليئًا بسهام نظرات الناس من قبحي..

وقفت أمام الصندوق أنظر إليه.. أضع أوراقي فوق فستان الفرح بعد أن قبَّلته لأنني كنت أتخيله على جسد «مريم».. لقد أقنعتني «مريم» أن أذهب إلى الفرح على الرغم من أنني قليل الخروج من حبسي الانفرادي؛ فالمسوخ يبقون في كهوفهم فقط.. ولكنني

ذهبت.. حاولت أن أتغلب على خوفي وذهبت.. كم تمنيت أن أكون مكان «محمد البحيري».. بل كم تمنيت أن أقتله مثلما قتلته بين ضلوع أوراقي وصندوقي..

وضعت الصندوق أمامي.. وأخرجت فستان الفرح.. جرس الباب يطرق الآن.. أعيش وحيدًا مقطوعًا من شجرة كما تقولون.. «سارة» على الباب..

قالت: هل اليوم سيكون يوم الفستان الأسبوعي؟

قلت وأنا أبتسم ابتسامة منكسرة: نعم يا عزيزتي..

قالت «سارة» وهي تتغنج بعلكة بين أسنانها: كما تشاء يا مولاي.

ارتدت «سارة» فستان الفرح.. وقالت لي وهي تمثل دورها: أنا «مريم».. كم أنت جميل يا «حسام».. كم أنت جميل ورقيق ووسيم.. كم أتمنَّى أن أقبِّلك.. كم أتمنى أن أرتمي بين أحضانك يا حبيبي..

كنت أدفع لها لتقول لي كل هذا وترتدي فستانًا أتخيلها فيه وكأنها «مريم»..

أقول لها أن تقول لي إنني جميل وإنها «مريم» وليست «سارة».. أحاول أن أرسم سيناريو أعيش فيه سعيدًا..

أمسك ورقة شوكولاتة بين يدي أهدتها «مريم» لي أيام الجامعة وأقبِّلها وأنا أنظر إلى الدور الذي تؤديه «سارة».. أقبل ورقة الشوكولاتة وأنظر إلى «سارة» وأقول لها: اقتربي يا «مريم»..

اقتربي من عالمي.. لا تخافي مني.. احتويني يا «مريم».. اجتاحيني واحتاجيني يا مخلصتي.

أفعل هذا كل أسبوع.. إنه يوم «مريم».. وفستان «مريم».. وأنا المسخ الذي يعشق «مريم» ولا يجرؤ أن يفتح فاه.. أنا المسخ يا «مريم».. يا حبيبتي.. يا أبديتي.